

## الباب الرابع

### فى الرعاىة الأءبىة

أقصد بالرعاىة الأءبىة تثقىف العقول وءطهىر الأرواح وءهذىب الأخلاق، وىعبء عنها أءىاناً بالتربىة وءءعلىم . وءالتربىة هى ءءأىر الذى ىءءءه الوالءان وءىرهما من الكبار قَصْداً فى نفس الصءىر، وءد ىقصد بها نفس الأءر الءاءء بهذه الوسىلة، على ءء ءعبىر المألوف . إما أن ىراء بها المعنى المصدرى . وإما أن ىراء بها المعنى الءاصل بالمصدر . وءءعلىم ىراء به ءءثقىف العقىلى إذا ءءر فى مقابء التربىة أو معها، وىراء ما ىراء بالتربىة إذا انفصلا عن بعضهما . ومهما ىكن من شىء فإن ءءأىر الذى ىءءء فى نفس الصءىر ءء ىكون فى مءال ءهذىب الغرائز وءعواطف ءءعوىء الطفل الأخلاق الطىبة وءسلوك المءءقىم، وءء ىكون فى مءال ءنمىة مءارءه وءوسىع أفقه العلمى بما ىكسبه الءبىرة وءمران على الءىاة . وءل من هءىن ءءأىرىن ىعءمء أءءهما على الآخر، ولا ىمكن الفصل بىنهما ءمماً، فالأخلاق وءسلوك ىءأءران بالعلم وءالمعرفة، وءعلم وءالمعرفة ىءسع مءالهما لىشمل الأخلاق وءسلوك، بل ءء ءطلق التربىة على ما ىشمل رعاىة الءسم ماءىاً إلى ءانب رعاىءه عقىلىاً وروءىاً وءلقىاً، وللاصءلاح ءءل كبىر فى ءءىء المراد من هءه الألفاظ .

والرعاىة الأءبىة، بمعنى التربىة وءءعلىم فى عرفنا الءءىء، لها مءاهء مءعءءة ما بىن ءءىم وءءىء، وما بىن شرقى وءربى، وما بىن ءىنى وءنىوى، وءنظرىاء وءأبءاء وءآراء فى هءا المءال كءبىرة مءوعه إلى ءء كبىر، ىفوق ما هو ءاصل بالنسبة للرعاىة الماءبىة بكءبىر، لأنها ءءعلق بأءوال النفس، وهى من العمق وءغموض بءءر ىءءل مءمة المرىبىن شاقه ءءءاء إلى ءهء كبىر . ولا نءءطىع الآن أن نلم بكل هءه المءاهء، فقء عنى بها المءءصون فى الوزارات وءهىءاء المشرفة وءالقائمة على هءا النوع من التربىة، وءسبنا أن نطرق بعض المسائل ءىءى عالءها المرىبون وأوشكء أن ءكون ءقائق، ونبىن ما فى الإسلام من صور ءءءء مءهء هءه التربىة، وما أوصى به علماء الإسلام بءاء على ءءاربهم وءعارفهم وابتكاراءهم فى هءا الموضوع .

## الفصل الأول

### فى العوامل المؤثرة فى السلوك

هناك عوامل كثيرة تؤثر فى سلوك الناشئ، ومداركه ونفسيته يمكن تركيزها فى عاملين أساسيين هما: الوراثة والبيئة. وهذان العاملان مشتركان فى الرعاية، ولكل منهما أهميته، ولا يجوز أن يهمل أحدهما عند تقويم السلوك ومعالجة الانحراف عند الأحداث والكبار، وإليك كلمة عن كل منهما:

الوراثة:

الوراثة هى انتقال الآثار من الأصول إلى الفروع والتشابه بينهما، وهذا التشابه ليس خاصاً بالإنسان، فهو مشاهد فى الحيوان بل فى النبات، لأنه سنة من سنن الله الكونية، آمنت بها العقول وتحدثت عنها كل الأجيال.

وقد ورد فى كلام العرب ما يدل عليها، من ذلك قولهم فى النبات:

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه وتُغرسُ إلا فى منابتها النخل

وقوله: إن العصا من هذه العَصِيَّة، وليس يجنى من الشوك العنب ولا من الكرم الحنظل، بل شبهوا طالب المستحيل بطالب الزبيب من الحنظل، وقالوا فى الحيوان: إن هذا الشبل من ذاك الأسد. وفى الإنسان:

بأبه اقتدى عدى فى الكرم ومن يشابه أبه فما ظلم

والله سبحانه وتعالى يقول فى ذلك على لسان اليهود: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا \* يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ [مریم: ٢٧، ٢٨].

والمشاهد أن الطفل يرث خصائص والديه واستعداداتهما وخصائص أصوله التى انحدر منها على تفاوت فى هذا الميراث، وهو بهذا أشبه بالغصن الصغير فى فرع شجرة كبيرة، يحمل خصائصها ومميزاتها، ضرورة ارتباطه بها، وكثيراً ما يشاهد أثر هذه الوراثة فى أسر يغلب عليها طابع معين يمتد إلى عدة أجيال.

وقد تكون الموروثات آتية إلى الطفل من قبل الأب فقط، أو الأم فقط، ولكل منهما استعدادات خاصة، وقد يرث طفل خصائص أبيه، ويرث أخوه خصائص أمه .

ويقال : إن حاتمًا الطائي ورث الكرم عن أمه « غنيّة بنت عفيف بن عمرو بن عبد القيس . وقد لامها قومها على سخائها، ثم حجروا عليها مدة لا يدفعون لها شيئاً، حتى إذا وجدوا أنها تألت بعثوا إليها ( صرمة ) من إبليها فأعطتها امرأة جاءت تسألها وقالت لها : دونك هذه الصرمة فخذيها، فقد، والله، مسنى من الم الجوع ما آليت معه إلا أمنع الدهر سائلاً شيئاً<sup>(١)</sup> .

ويتم هذا التوارث بطريقة لم يدرك سرها الحقيقي أحد، وإن كانت هناك محاولات في هذا المجال . ولعل من الخير أن نورد هنا حديثاً يكون منطلقاً للأطباء وذوى الاختصاص فى بحوثهم حول الوراثة لمعرفة كيف يكون الجنين شبيهاً بأحد أبويه . ورد فى الصحيحين عن النبى - ﷺ - أن أم سلمة رضى الله عنها سألته عن الاحتلام ، وهل يكون للمرأة ماء، فقال لها « نعم، فمن أين يكون الشبه؟ إن ماء الرجل غليظ أبيض وماء المرأة رقيق أصفر، فمن أيهما علا أو سبق يكون منه الشبه » وفى رواية « إذا علا ماء الرجل أشبه الولد أخواله، وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه » وفى رواية : أن يهودياً سأل عن الولد، فقال له النبى - ﷺ - « ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعاً فعلاً منى الرجل منى المرأة أذكراً بإذن الله - أى جاء الولد ذكراً - وإذا علا منى المرأة منى الرجل آثناً بإذن الله » أى جاء الولد أنثى . فهم بعض الشراح من مثل هذه الرواية أن هناك علواً وسبقاً، ولكل منهما أثره، فالعلو يتسبب عنه نوع المولود - ذكراً أو أنثى - والسبق يتسبب عنه الشبه لأبيه أو لأمه فى الخلقة أو الطبع، ولكن ذلك لم يثبت بطريقة علمية قاطعة، والعلو والسبق شىء واحد، والشك من الراوى فى أى اللفظين سمعه من النبى - ﷺ - على أن السبق أو العلو مما يصعب التحكم فيه، ودخوله تحت الاختبار، فلا ينبغى الاعتماد عليه فى التحكم فى نوع الجنين . لكن تقدم تفسير لذلك باحتواء ماء الرجل على عنصرى الذكورة والأنوثة،

(١) أعلام النساء لعمر كحالة .

واحتواء بويضة الأنثى على عنصر الأنوثة فقط، فالعلو أو السبق يمكن حمله على غلبة عناصر الذكورة والأنوثة. وكل ذلك بإذن الله.

ويفيدنا هذا الحديث عدة مسائل:

١ - كيف يشبه الولد أحد أبويه. ٢ - كيف يتحدد نوع المولود.

٣ - أن الموروثات يجوز ألا تكون من الأب والأم المباشرين، بل تكون من الجد الذي انتقلت صفاته إلى أولاده، فظهرت في بعضهم وهم أعمام الطفل أو أخواله، واستكثت في والده حتى ظهرت فيه، وقد قرر العلماء أن صفات الأصل يحتمل ألا توجد آثارها في الفرع مباشرة، ولكنها تظهر في فروعه بعد جيل أو أجيال. وكان أحد ولدي فاطمة بنت النبي - ﷺ - «الحسن والحسين» يشبه النبي أكثر مما يشبه أباه علياً، فكانت أمه ترقصه وتقول:

إِنْ بُنِيَ شَبِهُ النَّبِيِّ لَيْسَ شَبِيهَاً بَعْلِي

٤ - أن هذا الشبه أو قانون الوراثة ليس حتمياً، وليس أمراً طبيعياً مطرداً، بل إن ذلك متوقف على عوامل أهمها إرادة الله سبحانه، وهو سر قول الحديث «أذكراً بإذن الله». فعُلُوُّ ماء أحد الزوجين أو غلبته على الآخر - المذكور في الحديث - لم يحدد النبي - ﷺ - كيفيته، وترك للعقول والأبحاث المجال لمعرفة، وللأطباء والمختصين كلام في هذا الموضوع عن الوسائط التي تنقل الموروثات. وهي الكروموسومات، يرجع إليه في كتبهم، وقد ذكروا أن الحيوان المنوى فيه ٢٣ صبغياً «كروموسومات» وهي مسجل عليها نحو ٥٠٪ من صفات الجنين الذي ستكون بعد. والبويضة هي الأخرى لها ٢٣ صبغياً مسجلاً عليها صفات ٥٠٪ من الأم تورثها الجنين.

هذا هو طريق انتقال صفات الأصل إلى الفرع، وهو طريق فسيولوجي، ومن الطريف أن نذكر أن من طرق الوراثة عند الصينيين - كما تقدم - أن المرأة تدثر طفلها بعد ولادته بثياب أبيه مدة شهر لتتسرب إليه فضائله، كما ذكره الرحالة محمد ثابت.

وهذه الموروثات كما تكون في التكوين المادى والتركيب العضوى تكون

فى الأمور النفسفة والمعنوفة؁ وقد عنى البأحثون بدراسة قوانفن الورأفة وأثرها؁ وأفأدأ منها الترففة فى عالم الإنسان والصفوان والنبأ؁ وكما اشأهر القفسفس النمسف «منأل» المولود سنة ١٨٢٢م والمأوفى سنة ١٨٨٤م فى دراسة الورأفة فى النبات والصفوان؁ اشأهر العالم الفرنسى «رفبو» المولود سنة ١٨٣٩م والمأوفى سنة ١٩١٦؁ بدراسة الورأفة النفسفة فى الإنسان؁ وأأبأ أن الصفأأ العقففة والصفقففة لا أأأقل هى نفسها إلى الففن؁ وإنما فنفأل إلىه ما أأأمد عفله من دأأم فى الأكون الفسفى والعصفى؁ أى أن الصفأأ العقففة والصفقففة لا أأأقل بأرفق مبالشر؁ بل أأشأ عن ورأفة لبعض أوضاع ماففة فى الفسبم والغدد والجهاز العصفى؁ ولكن المهم أن صفأأ الأصل أأاهد فى الفرع؁ ولا فهمنا فى بأأنا هذا كفف أم ذلك .

وهنا كلام ففما فورأ من الصفأأ؁ هل هو الصفأأ الطفففة فقط؁ أو ففوز أن أورأ أيضاً الصفأأ المكأسبة؁ فأصأاب مذهب النشوء والإرأقاء مثل : دارون ولامارك وسفنسر؁ فقولون : إن الصفأأ المكأسبة أورأ . أما ففزمان وبفسون فلا فقولان بورأأأها؁ والرأى السففد عند البأأفن المنصففن أن الصفأأ المكأسبة أورأ إذا أأرأ فى الجهاز العصفى وأأأأأ فى آلافاه .

وففب أن فلاحأ أن الصفأأ لا أورأ كما هى؁ بل ولا فنفأل الاسأعداد لألك الصفأأ بآصوصها؁ فكل ما فقال : أن الوالدفن آافأا بفضائلهما على صآة الطفل جسماً ونفساً؁ فولد وهو قوى قوة أأأه من مقاومة كآفر من الأمراض الجسمفة والعقففة؁ أى ففه اسأعداد عام للفضائل؁ لا اسأعداد آاص لفضائل أبفه وأمه؁ فكل ما فمكن هو أألفد آبائه ففها بسهولة . وعلى هذا فمكن أن فقال : إن الصفأأ المكأسبة لا أورأ ولكن أورأ أأارها . وهذا هو رأى «رفبو» .

وقد فطن العرب فى الجاهلفة إلى الورأفة - كما أأأأأ الإشارة إلىه - وحرصوا على الإفأدة منها . ففأضح ذلك فى مآفط الأسرة من صورة نكأح الاسأبضاع؁ آفأ كان العربى فأمر زوأأه إذا أأهرأ من الففص أن أرسل إلى بعض الرجال المشهورفن لفأصل بها؁ ففأأزلها زوأها ولا فمسها آأى فأفن

حملها من هذا الرجل، فإن حملت اتصل بها إذا أراد. تقول السيدة عائشة في تعليل ذلك وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد<sup>(١)</sup>.

ولعل مما يوضح إيمانهم بعامل الوراثة ما جاء في كتاب «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء» للراغب الأصبهاني<sup>(٢)</sup>: أن «مخرق» أتى بنساء، فطلبن منه أن يعفو عنهن فأبى، فقالت امرأة منهن: أطل الله سهادك، وأخمد رمادك، فما قتلت إلا نساء أعلاهن ندي، وأسفلهن دمي، ما أدركت من قتلنا ثأراً، ولا محوت عن نفسك به عاراً. فأمر بإخلاء سبيلهن، إلا هذه المرأة، وقال: أخشى أن تلد مثلها.

وتقدم أن العرب كانوا يحكمون بالوراثة في تحقيق نسب المولود إلى أبيه. فكانت البغى تلحق ولدها بأحد من اتصلوا بها إذا لم يدعه واحد منهم، وذلك باستشارة القافة. وهم خبراء القيافة، وكانوا يحكمون بآثار الأقدام على أصحابها الذين كانوا يختلفون إلى البغى ليعرفوهم. ولعل هذا كان من بين الأمور التي كانت تدعو من يغشون منازل المومسات، إلى أن يجروا أطراف مآزرهم وراءهم لتطمس آثار أقدامهم على الرمال، حتى لا يكونوا عرضة لأن يلتحق بنسبهم من تجيء به البغى أو المظلّمة، كما كانوا يسمونها، لأن سفلة الناس وسوقتهم كانوا يختلفون إلى البغايا في الظلام، وكانوا يجرون أطراف مآزرهم وراءهم، ولذلك جاء من جوامع كلمهم في المدح: فلان لا يرخي لمظلّمة إزاره<sup>(٣)</sup>.

وتقدم في حديث الملاعنة إشارة إلى ذلك، في الغلام الذي تنازعه عبد بن زمعة وسعد بن أبي وقاص، وكان شبيهاً بعتبة أخي سعد، كما ورد في حديث من اتهم زوجته بشريك بن سحماء قول الرسول عليه الصلاة والسلام «فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدّج الساقين فهو لشريك بن سحماء» فجاءت به كذلك. فقال النبي ﷺ: «لولا ما مضى من كتاب الله لكان لى ولها شأن»<sup>(٤)</sup> والذي مضى في كتاب الله هو الأيمان التي أقسمتها كما في رواية

(١) رواه البخارى . (٢) ج ١ ص ١٤٩ .

(٣) د . على وافى - مجلة الأزهر مجلد ٣٦ ص ٥٦٥ .

(٤) رواه البخارى .

أبى داود. ومعنى خدلج عظيم. وتقدم أيضاً ارتياح النبی - ﷺ - لشبه أسامة بابيه زيد.

وقد عرف العرب الوراثة الجسمية المادية والوراثة الخلقية قبل أن يبين لهم الإسلام ذلك، ويظهر هذا فى موضوع خطبة هند بنت عتبة بن ربيعة إلى سهيل ابن عمرو وأبى سفيان. فقد قيل لها: إن سهيلاً فى ثروة وسعة من العيش، إن تابعته تابعك، وإن ملت عنه حط إليك، تحكمن عليه فى أهله وماله، فقالت عنه: مضىاع للحررة، فما عست أن تلين بعد إباتها، وتضيع تحت جناحه، إذا تابعها بعلها فاشترت، وخافها أهلها فأمنت، فساء عند ذلك حالها، وقبح عند ذلك دلالتها، فإن جاءت بولد أحمقت، وإن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت، وفضلت عليه أبا سفيان<sup>(١)</sup>. واعترف الإسلام بالوراثة فى موضوع النسب كما ذكر وفى غيره، فحث على اختيار الزوجات، لأن العرق دساس، روى ابن ماجه من حديث عائشة « تزوجوا فى الحجز الصالح » ولم يذكر عبارة « فإن العرق دساس » والحجز - بضم الحاء وكسرهما - هو الأصل والمنبت. وروى بلفظ « انظر فى أى شىء تضع ولدك فإن العرق دساس » وهما حديثان ضعيفان. وروى التحذير من زواج خضراء الدم، وهى المرأة الحسناء فى المنبت السوء. والحديث رواه الدارقطنى والعسكرى عن أبى سعيد الخدرى، وضعفه العراقى. وقد قيل: إن جمع بن سليمان بن على عاب يوماً على أولاده وأنهم ليسوا كما يحب، فقال ولده أحمد: إنك عمدت إلى فاسقى مكة والمدينة وإماء الحجاز، فأوعيت فيهم بضعك ثم تريد أن ينجبوا، هلا فعلت فى ولدك ما فعل أبوك فيك، حين اختار لك عقيلة قومها، وصدق الشاعر الذى يقول:

لا تنكحن سوى كريمة معشر      فالعرق دساس من الطرفين  
أو ماترى أن النتائج كلها      تبغ الأخص من المقدمتين

وقد نصحت العرب بالاغتراب فى الزواج مخافة الضوى غالباً، كما يقول

الشاعر:

(١) تقدم فى الجزء الأول من هذه الموسوعة ص ٢٦١ وما بعدها.

فتى لم تلده بنت عم قريبة فيضوى، وقد يضى رديد الغرائب  
وقال الرياشى المتوفى سنة ٢٥٧هـ:

فأول إحسانى إليكم تخيرى لماجدة الأعراق باد عفافها

وقال رجل لأبى عمرو بن العلاء: لا أتزوج امرأة حتى أنظر إلى ولدى منها،  
بالنظر إلى أبيها وأمها، فإنها تجر بأحدهما. ومما يدل على أن بعض خصائص  
الأصل قد تكمن فى الفرع، ولا تظهر إلا بعد أجيال ما تقدم فى بحث ثبوت  
النسب بالفراش، من شك رجل فى نسبة ولده له، لأنه أسود، وسؤال النبى -  
ﷺ - عن ألوان إبله واختلاف لون واحد منها، وقول الرجل فى سبب ذلك،  
لعله نزعه عرق، وإقرار النبى له فيه. وسيأتى بيان دور المربي إزاء هذه الموروثات.  
وقد تقدم أن الله يصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده وأهل دويرته وأهل  
دويرات حوله.

البيئة :

البيئة هى كل ما يحيط بالإنسان ويؤثر فيه تأثيراً مادياً أو معنوياً، فى بدنه  
ونفسه وعقله وخلقه. ولا ينكر أحد أن كل كائن حتى يتأثر بالجو الذي يعيش  
فيه والظواهر التى تحيط به، مثله فى ذلك مثل النباتات التى تتأثر ببيئتها.  
والإنسان ككل كائن حتى يتأثر بالبيئة التى يعيش فيها حتى عندما يكون جنيناً  
فى بطن أمه. فبصرف النظر عن الصحة الجسمية للام وأثرها العضوى على  
تكوين الجنين نرى أن العوامل النفسية والعصبية التى تتعرض لها يتأثر بها الجنين  
أيضاً، كما قرره المختصون وأيدته المشاهدة، ولا يقتصر هذا على الناحية الجسمية  
بل يتعداه إلى مجال النفس والعقل.

ومما هو مشاهد أن الحامل إذا توحمت على شىء ظهر أثره فى تكوين الجنين  
بصور مختلفة، بل إنها إذا توحمت عليه أثناء رضاعة الطفل ظهر الأثر أيضاً،  
وقد أنكر كثير من الباحثين ذلك، لكن شوهده أن بعض النساء تاتى بمولود فيه  
شبه بأحد الناس أو بأحد الحيوانات، دون أن يكون هناك اتصال جنسى بينهما،  
أو اتصال بنسب ينحدر منه هذا الشبه، ولا يظهر فى هذه الحالة أنه نزعه  
عرق<sup>(١)</sup>. فهل يمكن أن يقال: إن التأثيرات النفسية والعصبية قد تكون بمثابة

(١) فى مختار الخبرتى « ج ١ ص ١٠٧ » أن امرأة ولدت ولداً يشبه الفيل، وكان الفيل

قد حضر لأول مرة « ص ١٠١ ».

رسل أو وسائط توصل هذه الانطباعات إلى جسم الجنين أو الرضيع عن طريق اللبن؟ رأيت في سفر التكوين<sup>(١)</sup> ما يبين قدم هذه الظاهرة ومحاولة استغلالها، وهي أن يعقوب وضع قضباناً من فروع الشجر مخططة في مساقى الغنم، لتتوحم عليها وتلد أغناماً مخططة. فليتأمل. وهذا يؤيد الرأي القائل إن الصفات المكتسبة تورث إذا أثرت تأثيراً عميقاً في الأعصاب والأحاسيس. وفي ذيل تذكرة داود «ص ٣١» أن شبه الولد بوالديه قد يكون من التخيلات والأوهام ساعة الاتصال الجنسي، أو من تخيلات الحامل زمن تخلق الجنين. وتحدث العلماء عن حمل الغيرة، وقالوا: قد تمكث امرأة سنوات دون حمل مع عدم وجود موانع، ثم إذا جاءت ضرة حملت هذه المرأة، أو حملت لأن إحدى المقربات إليها حملت، وهذا يسمى حمل الغيرة، يقول الدكتور إسماعيل صبرى رئيس قسم العقم وتنظيم الأسرة بمستشفى الجلاء التعليمي بمصر: إن الغيرة هي تمنى النعم التي ينعم بها الآخرون، أما الحقد فهو تمنى زوالها [في عرف علماء الشرع أن الحالة الأولى تسمى الغبطة وهي محمودة، والثانية تسمى الحسد وهي مذمومة] والغيرة تؤدي إلى الحمل، لأنها عبارة عن انفعال عصبى شديد يؤدي إلى حدوث انفعالات في خلايا المخ تؤثر بدورها على جزء منه يسمى «الهيبتولاس» فتزداد إشارته العصبية الموجهة إلى الغدة النخامية فيزداد بالتالى إفرازها للمهرمونات التي تساعد على حدوث التبويض<sup>(٢)</sup>.

كما تحدثوا عن الحمل الكاذب وأثره في تغيرات الجسم، يقول الدكتور أحمد زكى: إن المرأة شديدة الرغبة فى الحمل أو شديدة الخوف منه تحدث لها أعراض الحمل وليس بها حمل، فينقطع حيضها ويثقل ثدياها، وتعرض لها فترة من الوحم والقيء ويكبر بطنها رويداً رويداً، كأن فيه جنيناً ينمو شهراً بعد شهر، ولو استمر ذلك الأمر حتى تبلغ أشهر الحمل لجاءها مخاض كاذب، بل استدماء وطلق كالولادة، غير أنها لا تلد شيئاً، كل هذا دليل على ما للحالة

(٢) الأهرام ٢٧/١٢/١٩٨١.

(١) إصحاح ٣٠.

النفسية من أثر، لا على العقل الواعى فحسب، ولكن حتى فيما لا إرادة فيه ولا وعى كهذه الأعراض<sup>(١)</sup>.

ويقول ابن القيم: الحجام يرى الخراج فيشمئز منه فيخرج له مثله، ومداوى رَمَدٍ يقشعر فيحصل له مثله، كالتثاؤب لمن يرى متثائباً<sup>(٢)</sup>.

إن الطفل بعد ولادته يتعرض للتأثر بما يتأثر به كل إنسان من هذه البيئات، سواء منها الطبيعية والاجتماعية والسياسية وغيرها. فالبئة الصحراوية غير البحرية، والزراعية غير الصناعية، والحارة غير الباردة، والديموقراطية غير الديكتاتورية، وكل ذلك له أثره الواضح على الطفل وعلى كل كائن حي. يقول ابن خلدون في مقدمته:

إن سكان الأقاليم المعتدلة هم أعدل البشر ألوناً وأجساماً وأخلاقاً وأدباً، ومن أجل ذلك اختصهم الله بالنبوات. وسكان الأقاليم غير المعتدلة يبعدون عن الإنسانية بمقدار قربهم من الحيوان الأعجم في أمزجتهم وأخلاقهم، فلا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة، إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال، وها نحن أولاء نرى أهل السودان على العموم متصفين بالخفة والطيش، ولعين بالرقص على كل توقيع ونغمة، وليس لذلك من سبب إلا أنهم لما سكنوا الأقاليم الحارة دهوراً طويلة استولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم، فأصبحت نفوسهم تكاد تكون أبداً منتشية فرحاً وسروراً، بحكم انتشار الروح الحيوانى فيهم.. إلى أن قال: إن الأقاليم المخصبة العيش لكثرة الزرع والضرع والأدم والفواكه يتصف أهلها بالبلادة في أذهانهم والخشونة في أجسامهم، وإن المقلين المقتصرين على الألبان وخفيف الأغذية أحسن حالاً في أجسامهم وأخلاقهم من المنغمسين في بحار الترف والبذخ، فألوانهم أصفى، وأبدانهم أنقى، وأشكالهم أتم وأحسن، وأخلاقهم أبعد من الانحراف، وأذهانهم أثقب في المعارف والإدراكات. أضف إلى ذلك أن المتحافين عن اللذات في البادية والحاضرة أحسن ديناً وإقبالاً على العبادة وأقوم أخلاقاً وأمتن مذهباً من أهل الترف والرفاهية الذين قست قلوبهم وطمست بصائرهم. اهـ<sup>(٣)</sup>.

(١) محلة العربى يونية ٩٦٨ ص ١٣٩. (٢) زاد المعاد - الاستفراغ بالقىء.

(٣) ص ١٠٦.

إن مجال هذه التأثيرات يظهر في تحديد الهدف من التربية، واختيار ما يلائمها من مواد وما يتخذ لها من وسائل، واليونان القديمة التي عاشت على الحروب كانت تعد أولادها لهذه المهمة، فتربيهم على نظام قاس سنتعرض له بعد، وعند سكان استراليا الأصليين إذا شب الغلام خضع لصنوف من التعذيب لمدة أربعة عشر أسبوعاً، يرمى بعدها فوق نار يزداد لهيبها تدريجياً وهو يتلوى فوقها بسرعة لكي يتجنب خطرهما، فإن استمر فوقها عشر دقائق عدَّ رجلاً، وزين بأشرطة من جلود الكائنات (١).

والطفل في البيئات المتعصبة والقبائل المتمسكة بالثأر التي تعتمد على البطش والسلاح، تربي أولادها وتعدُّهم إعداداً خاصاً لهذه المهمة، ويبكرون برجولتهم ليرهبوا بهم أعداءهم، وقد ينصرفون بالولد عن تعليمه وثقيفه، مؤثرين توجيهه هذه الوجهة، لأنها هي التي سيطرت على أعصابهم ومشاعرهم، وتوارثتها أجيالهم وانعدت عليها نفوسهم.

لقد رأى رجل هنداً زوجة أبي سفيان ترقص ولدها معاوية فقال: إن هذا الولد إذا كبر سيسود قومه، ولكن أمه التي تؤهله لأكثر من ذلك لم ترض بهذا القول، بل قالت: ثكلته إن لم يسد غير قومه، وقال الكاتب المشهور «اشنطون إيرفنج»: إن كان في طبعي لطف ودمائة فلان أمي نشأت على ضفاف بحر «إطسن» إذ كنت وأنا حدث أعتقد أن بهذا النهر روحاً يقوم به، وأنه قد طوى على الحرية والشجاعة والصدق والاستقامة، لا يعرف المصانعة والمحاذقة والخداع، خلصت نيته وطهر قلبه واستقام مجراه، وعلته السكينة وخيمت عليه السعادة، فاستمد عقلي منه، واستضاء خيالي بنوره (٢).

وقد أدرك العرب أثر البيئة على الطفل فالتمسوا لأولادهم المراضع في الصحراء، لينعموا بهوائها ولينشئوا على الخشونة والرجولة، وليتعلموا اللغة

(١) جولة في ربوع الشرق لمحمد ثابت سنة ١٩٣٢.

(٢) مذكرات الأخلاق لجاد المولى وسلمان ص ١٠٠.

العربية الفصحى والعادات العربية الأصيلة، التي تحافظ عليها حياة البداوة، بعيدة عن الحضرة المعرض للتأثيرات الكثيرة.

وإذا كان الكبير يتأثر بالبيئة في أخلاقه وسلوكه فكيف بالصغير وهو أقوى استعداداً للتأثير، وأحرص على التقليد، لأنه يندفع إليه بغريزته وعواطفه، غير عابىء بحكم العقل، لأنه لم ينضج بعد حتى يقاوم الغرائز ويقف أمام العواطف. لقد كان نساء قريش لا يستطيعن التطاول على أزواجهن. فلما هاجرن إلى المدينة تعلمن من نسائها اللاتي يغلبن أزواجهن، كما قرر ذلك عمر بن الخطاب فى حديث إيلاء النبى - ﷺ - من زوجاته. روى مسلم أن عمر لما دخل على النبى ﷺ بعد أن علم أنه آلى منهن قال له: الله أكبر، والله لو رأيتنا يارسول الله وكنا معشر قريش قوماً تغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا أقواماً تغلبهم نساؤهم، فطفقن نساؤنا يتعلمن من نساؤهم<sup>(١)</sup>...

ولما اندمج العرب عن طريق الفتوح والهجرات فى الأوساط والبيئات الأخرى تأثروا بها فى عاداتهم وسلوكهم، ولعل مما يثير إلى ذلك أن عمر لما زار معاوية بالشام ورأى أبهة الملك التى لم تعهد من قبل أجاب معاوية على تساؤله بقوله: إنا فى بلاد نمتنع فيها من جواسيس العدو، فلا بد لهم مما يرهبهم من هيئة السلطان، فتركه وشأنه<sup>(٢)</sup>.

وللتنبية على خطر البيئة حذر الإسلام من صداقة من يخشى من أخلاقهم العدو، فأن الطبيع سراق. وقد قال النبى - ﷺ - «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخال»<sup>(٣)</sup>. وقال الشاعر:

واحذر مصاحبة اللئيم فإنها نعدى كما يعدى الصحيح الأجرب

وأخطر البيئات تأثيراً على الناشء بيئة الأسرة والمدرسة، ففى الأسرة يتأثر

(١) صحيح مسلم ج ٣ ص ٨٥.

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٢١٢.

(٣) رواه أبو داود والترمذى عن أبي هريرة، وحسنه.

بسلوك كل أعضائها، من الوالدين والإخوة والخدم، ومعانى الحنو والعطف والرحمة والتعاون والشعور بالمسئولية والتقليد وغيرها... كل ذلك يعرفه الطفل ويتعوده أول ما يعرف ويتعود من السلوك. وسيظل متأثراً بهذه الصور التي انطبعت في نفسه منذ الصغر لتظهر على سلوكه عند الكبر، فمن شب على شيء شاب عليه، والأسر مختلفة في معان كثيرة، منها المحافظة وغير المحافظة، ومنها المستقرة الوادعة والمضطربة المتنازعة، ومنها الغنية والفقيرة، وهكذا. ولكل من ذلك أثره على الناشئ، ويتحكم في تحديد الهدف من تربيته، والوسيلة التي يربي عليها والمادة التي يتلقاها.

والمدرسة تتلقى الطفل بعد سنوات قضاها في أحضان والديه، فهو يعيش فيها في مجتمع أكبر نسبياً من مجتمع الأسرة، والمعلم يحل محل والديه، والتلاميذ محل إخوته، والمعانى الاجتماعية التي تفتحت عليها عينه في البيت تكبر وتنضج في المدرسة، وقد تتشكل بشكل آخر، أو تستبدل بها معانٍ أخرى، ذلك أن المعلم ليس كأبيه في كل شيء، فالرحمة والعطف والحنو والتسامح والتدليل أشياء يفتقدها الطفل، أو يفتقد كثيراً منها في المدرسة، وطباع التلاميذ، وهم كثيرون، مختلفة، قد يصادف، بل سيصادف حتماً، منها ما لم يصادفه في أخوته، والصفات التي يقلد فيها معلمه وزملاءه تختلف، ولو إلى حد ما، عن التي كان يجدها في الأسرة، والمدرسة مرحلة انتقال يتأهل بها الناشئ لمواجهة المجتمع الأكبر في الإقليم والوطن والعالم كله، بعد أن كان محصوراً بين جدران البيت ومحيط الأسرة، والمدرسة تتلقى الطفل في سن مبكرة يكون فيها ما يزال قابلاً بسهولة للتأثر بمن حوله، بل إن هذا التأثر يزداد قوة، لأن العواطف عند الجماعة أقوى من العاطفة الفردية، والتقليد فيها أسرع من التقليد الفردي، وللمدرسة قوانينها ونظمها الصارمة التي يجب احترامها ويقل التسامح في مخالفتها، كل ذلك لا بد من التنبيه له لبيان مدى تأثير المدرسة على حياة الناشئ.

وفى المجتمع الواسع بعد البيت والمدرسة يتأثر الناشئء بالإذاعة المرئية وغير المرئية، وبالصحافة والمسرح ودور اللهو، وبالمكتبات العامة وقاعات المحاضرات، وبالمعارض والأسواق وأماكن السياحة ومراكز الثقافة المختلفة ودور العبادة والوسائل الأخرى، وكذلك يتأثر طوعاً أو كرهاً بالقوانين التى تحكمه. وكل ذلك على اختلاف ألوانه لا بد من مراعاته فى التربية، وفى الحكم على سلوك الطفل.

ويتلخص أثر البيئة، كما يقول المربون، فى الإنسان فى أمرين، أولهما إيجابى، وهو إيقاظ ما كمن فى الكائن الحى من صفاته الوراثية، وثانيهما سلبى، وهو إضعاف وتعجيز صفة بسلب الفرصة التى كانت تنميتها وتقويها<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

---

(١) المجتمع العربى للمدارس الثانوية - طبعة ثانية ١٩٦٦ ص ٣٩.

## الفصل الثانى

### فى المربى

أقصد بالمربى الشخص الذى يتولى تربية الناشء ليهذب غرائزه ويبنى مواهبه ويقوم فكره وخلقه. وأظهر هؤلاء الأشخاص فى هذا الميدان هم الوالدون والمعلمون فى معاهد التعليم، إلى جانب المشرفين على أنواع النشاط الثقافى فى الأجهزة المختلفة، كما أشرنا إلى ذلك فى البيعة.

ويشرف على هؤلاء جميعاً أولو الأمر، وتيسر لهم السبل، وتتولى رعاية من يعجز عنها هؤلاء، كما قال ابن حزم فى كتابه «الإحكام» فى مسئولية الدولة عن ضمان التعليم لكل فرد حيث يقول: يجبر الإمام أزواج النساء وسادات الأرقاء على تعليمهم ما ذكرنا «الحلال والحرام» إما بأنفسهم وإما بالإباحة لهم لقاء من يعلمهم. وفرض على الإمام أن يأخذ الناس بذلك، وأن يرتب أقواماً لتعليم الجهال. وقال القاضى من أئمة الحنابلة: يجب على الإمام أن يتعاهد المعلم والمتعلم لذلك «تعليم الشريعة» ويرزقهما من بيت المال، لأن فى ذلك قواماً للدين. اهـ. فتربية الأولاد مهمة جماعية لا بد أن يتضافر عليها كل فرد وهيئة فى المجتمع، ولا بد أن يتخذ لذلك منهج يودى إلى الغرض المطلوب، وألا يقصر فى واجبه أحد. وسيأتى توضيح ذلك.

إن الحكومات لا بد أن تتدخل بشكل قوى فى تربية الناشء، فهى نائبة عن الأمم فى رعاية مصالحها والقيام بما لا يستطيع الأفراد القيام به، وقدماً كان للحكومات هذا التدخل، حتى فى داخل المنازل. ففى إسبيرة كانت الأم تربي طفلها حتى السابعة من عمره تحت إشراف الحكومة، وبعدها تنتزعه من أبويه وتتولى رعايته من جميع النواحي، وتدخل أولو الأمر فى الإسلام فى التعليم أحياناً لمصلحة الجماعة أو لخدمة العهد القائم، فقد عين معاوية قصاباً يجلس للناس بعد صلاة الفجر وبين صلاتى المغرب والعشاء ليدعوه ولأهل الشام

بواسطة القصص . وعندما شيد العباسيون دار الحكمة فى بغداد عینوا لها جلة العلماء ورتبوا لهم الأجور . وكان لهم كامل الحق فى توجيه أمورها كما يريدون . وكما فعل الفاطميون فى الجامع الأزهر لنشر المذهب الشيعى . وحدث مثل ذلك فى المدارس ، فنظام الملك كان يحارب بمدارسه المذهب الشيعى الذى كان منتشرًا فى عهد البوهيين ، وأمر بأن يبعد عن المدارس كل من يعتنق هذا المذهب ، وكل الامم الحديثة تتدخل حكومتها فى التربية ، وبعض المجتمعات القديمة كان يحتم على الآباء إهمال الاولاد أو إعدامهم فى حالات خاصة ، فكانت اسبرطة تحتم على الآباء إعدام اولادهم الضعاف أو المشوهين أو المرضى عقب ولادتهم ، أو تركهم فى القفار طعاماً للوحوش والطيور ، وكانت الأم تلجأ إلى مختلف الوسائل لتحقيق هذه الغاية . وللتأكد من صلاحية ولدها للحياة كانت تغمسه فى دن من النبيذ وتتركه مغموساً وقتاً ما ، فإن عاش بعد ذلك دل هذا على قوة بنيته واستحقاقه للتربية ، وإن مات تخلص المجتمع من كائن ضعيف . وكان هذا النظام أو مثله سائداً فى أثينا وروما . وأقره فلاسفة اليونان وعلى رأسهم أفلاطون وأرسطو . ولكن أهم من يتولى تربية النشء هم الوالدون والمعلمون .

#### الوالدان :

الوالدان هما أول من يتلقى الطفل بالتربية الجسمية والخلقية معاً ، ودورهما كبير جداً فى هذه الناحية . وأخطر من دور المعلم ، ذلك أن الطفل يولد عجينة طرية فى يد والديه ، يستطيعان أن يشكلاً منه ما يشاءان ، وذلك بتهذيب غرائزه واكتشاف ميوله ووضعها على الخط الذى يرسمانه ، وقلبه الطاهر – كما يقول الإمام الغزالي – جوهرة نفيسة وساذجة خالية من كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما ينقش عليه ومائل إلى كل ما يمال به إليه .

والطفل فى البيت يقضى أكثر أوقاته بين والديه ، والجزء الذى يقضيه فى المدرسة ، مهما طال ، لا يقارن بالجزء الكبير الذى يصرفه فى البيت . ومن هنا يكون ما يتلقاه فيه أكبر مما يتلقاه فى المدرسة وأقوى من جهة الانطباعات

النفسية والاتجاهات الخلقية على الأخص، والحرص على تربية الطفل والإخلاص في تنشئته لا يوجد في غير الأسرة كما يوجد فيها، فالوالدان يُعدّانه قطعة منهما، ويضحيان بأعز ما يملكانه في سبيل راحته وسعادته، وهذا يؤدي إلى الإخلاص في تربيته. وفي البيت تكون الدراسة الأولى للغرائز واكتشاف الميول، وهذه الدراسة أول تحقيق علمي يعمل عن الطفل يساعد على تعيين الطريق الصحيح لتربيته. ومنه يستطيع المعلم أن يواصل مهمته، يقول النبي - ﷺ - في بيان خطر الوالدين على الطفل « كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »<sup>(١)</sup>. وفي التعبير بالتهويد والتنصير والتمجيس ما يدل على تكلف ومشقة في حمل الطفل على شيء من هذه الأديان، لكن الإسلام، لما فيه من اليسر والبساطة والوضوح بالقياس إليها، لا يحتاج إلى هذه المشقة، لملاءمته للفطرة السليمة، وقد تقدم الحديث عن الفطرة.

والأم بالذات لها دورها الخطير في هذه التربية، وقد أقر ذلك علماء التربية والاجتماع، وشهدت بذلك وقائع التاريخ. ومن قول العظماء في ذلك ما قاله شوقي:

قم ابن الأمهات على أساس ولا تبن الحصون ولا القلاع  
فهن يلدن للقصب المذاكي وهن يلدن للغاب السباعا

والمذاكي هي الخيل التي قد أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان، والواحد مُذَكٌّ، ذكره القرطبي في تفسيره<sup>(٢)</sup>. والقصب مفردا قصبه، وهي ما يركز عند أقصى الغاية في مجرى السباق، فمن سبق إليها أخذها واستحق الخطر، أي الرهن، فلذلك يقال: حاز قصب السبق واستولى على الأمد، أي الغاية، والقصبه هي ما استطالت من الجوهر في تجويف. فمن سبق إليها فاز بها كما في نهاية ابن الأثير. وقول حافظ:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة.

(٢) ج ٤ ص ٣٠٨.

الأم روض إن تعهده الحيا بالرى أورق أيما إيراق  
الأم أستاذ الأساتذة الأولى شغلت مآثرهم مدى الآفاق

وقول نابليون: إن المرأة التي تهزم المهدي بيمينها تهزم العالم بشمالها، وقوله عندما سئل عن أهم حصن تحتمى به فرنسا ويخافه العدو: هو الأم الصالحة، التي تحسن القيام على أولادها، فتقدم للوطن رجلاً، الواجب دينهم، والوطن هدفهم، ونصرته دينهم الذي يعتنقون. وقول هتلر عند أمره بالاستعداد للحرب مبيناً دور المرأة فيها: خير خدمة للبلاد قراركن في البيوت واجتهادكن في تنظيم الجيل الجديد<sup>(١)</sup>.

جاء في مقال اللكاتب الفرنسي «إيتين لامى» منشور بمجلة العالمين الفرنسية عدد سبتمبر ١٩٠١م عند الحديث على مقاومة الإسلام عن طريق تربية أولادهم في المدارس المسيحية: إن تربية بنات المسلمين تربية مسيحية توجد للإسلام في داخل حصنه المنيع عدواً لِدُوداً لا يمكن للرجل قهره، ومتى تغلبت المرأة تغير نظام الأسرة بالمرّة، وأصبح في قبضة تصرفها، ومن السهل على المرأة والحالة هذه أن تؤثر على إحساس زوجها وعقيدته، فتبعده عن الإسلام وتربى أولادها على غير دين أبيهم، وفي اليوم الذي تغذى الأم أبناءها بلبان هذه التربية تكون هذه المرأة قد تغلبت على الإسلام نفسه. اهـ<sup>(٢)</sup>.

(١) مجلة الأزهر شعبان ١٣٦٩هـ.

(٢) ممن تأثروا بأمهاتهم من العرب حاتم الطائي، وقد تقدم، ومن الأجانب:

- ١ - جيتة: تعلم من أمه صوغ الخيال في صورة حية.
- ٢ - كرومويل: كانت أمه معروفة بالنشاط والذكاء الحاد ومواجهة النكبات بالصبر والتدبير، أهدت إلى بناتها الخمس ما ساعدهن على الزواج من رجال أكفاء، وذلك من كدّ يدها، ولازمت ابنها كرومويل تراقبه في صعود الخطر لسلم المجد الذي قفز إليه.
- ٣ - ليتسيا: أم نابليون، اعترف بأن سلطانها عليه كان شديداً، تعلم منها الطاعة والكبرياء والاقتصاد، لشدة ما عانتها من الفقر، وكانت تمسك لأولادها العصا وتؤدبهم، وضربت نابليون بالسياسة عارياً لأنه استهزأ من عجوز دخلت على أمه، وشجعته أمه على الفرار من منفاه في جزيرة «ألبا» إلى فرنسا بكلمات كلها حماسة، وكذلك أم جورج واشنطن، ربت أولادها الخمسة بعد موت أبيهم، وكان جورج في الحادية عشرة من عمره. ويعترف «أديسون» المختص=

وخطورة الأم على الأولاد لا تقتصر على مرحلة الطفولة، بل تصاحبهم عند الكبر، ونحن نعرف أثر ذلك واضحاً في تشجيع أسماء بنت أبي بكر لابنها عبد الله بن الزبير في مقاومة حصار الحجاج لمكة، حيث قالت له: عش كريماً ومت كريماً. ولما قال لها: أخاف أن يمشلوا بى قالت: وما يضر الشاة سلخها بعد ذبحها؟ لقد كانت هي نفسها على تمكن من الشجاعة سرت في دماء ابنها منها، فعن أبي نوفل في حديث أيام ابن الزبير: ثم أرسل - يعنى الحجاج الثقفى - إلى أمه أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها فأبت أن تأتيه، فأعاد عليها الرسول: لتأتينى أو لأبعثن إليك من يسحبك بقرونك، فأبت وقالت: والله لا أتى إليك حتى تبعث من يسحبنى بقرونى. فقال: ايتونى بسببتي، أو بسببتي، فأخذ نعليه ثم انطلق يتودف - يتبختر - حتى دخل عليها فقال: كيف رأيتنى صنعت بعدو الله؟ يعنى ابنها، قالت: رأيت أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك، بلغنى أنك تقول: يا ابن ذات النطاقين، أنا والله ذات النطاقين، أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول الله - ﷺ - وطعام أبى، وأما الآخر فنطاق المرأة التى لا تستغنى عنه، أما إن رسول الله - ﷺ - حدثنا أن فى ثقيف كذاباً ومبيراً، أما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فلا إخالك إلا إياه، فقام ولم يراجعها. رواه مسلم<sup>(١)</sup> وزاد زرين: أن الحجاج قال: دخلت عليها لأحزنها فأحزنتنى. والسبتان: النعلان، وأصله من السبت - بكسر السين - وهى جلود البقر المدبوغة بالقرظ يعمل منها النعال، فالتسمية على الاتساع. والسبتتان نسبة إليها. وقيل من السبت - بفتح السين - وهو حلق الشعر، لأن شعور الجلود ترمى عنها، ثم تعمل منها النعال. والمبير = المهلك. وأسماء كان سنها إذ ذاك مائة سنة، وكف بصرها، كما ذكره ابن عبد ربه فى العقد الفريد.

= الأمريكى الكبير بأن أمه سبب عظمته، وأم دوق ويلنجتون بطل معركة «واترلو» قرية الشبه بأم نابليون خلقاً وخلفاً. ولويد جورج السياسى الأنجليزى يدين لوالدته بنبوغه، ومثله الجنرال «بوث» واللورد «بركنهد» الوزير الأنجليزى [من محاضرة لمحمد صبرى أبو علم].

(١) ج ١٦ ص ٩٩.

وكذلك الخنساء فى تشجيع أولادها يوم القادسية حيث قالت لهم: اعلّموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية، اصبروا وصابروا وربطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون، فإذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها، وجللت ناراً على أرواقها، فتيّموا وطيسها، وجالدوا رسيسها تظفروا بالغنم والكرامة. فى دار الخلد والمقامة، ولما استشهدوا جميعاً قالت: الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم، وأرجو أن يجمعنى ربه بهم فى مستقر رحمته. والرئيس = أول مس الحمى.

وكذلك وصية أم عمارة بالجهاد يوم أحد، ووصية أروى لابنها، كما فى الطبقات الكبرى لابن سعد، ولا ننسى «هاجر» ورعايتها لإسماعيل فى وحدتها، وتكريم الله لها تكريماً خالداً على مدى التاريخ، والذى يجعل للمرأة هذه الخطورة أمور، منها:

١ - ملازمة الطفل لها أكثر من ملازمة أبيه له، لانشغاله بالعراك فى ميدان الحياة الواسع.

٢ - شدة حنو الأم على ولدها، لإحساسها بأنه قطعة منها، فهى أشد به التصاقاً، وهو إليها أشد ميلاً، كما أنه لسماع توجيهاتها أكثر استجابة، ومن هنا كانت لها الحضانة كما تقدم ذكره.

٣ - ما جبلت عليه المرأة من الصبر الشديد ومناسبة ذلك لخدمة الطفل والسهر عليه، والرجل فى هذا المجال يقل عن المرأة. يقول أبو حيان التوحيدى فى «المقابسات»: الأم شأنها فى الحى أعظم، وتدبيرها فى المباشرة أظهر، وشفقتها بحسب ضعف قوتها أكثر، والأب هو الفاعل الحسى أيضاً ولكن لا مباشرة له متصل، ولا ولاية له متمادية، وإنما هو أول فقط، والأم حاملة واضعة، وفاطمة ومرضعة، وحاضنة ومربية، فالكلفة عليها أغلظ، وحسها للولد آنف، وهو بها أشغف<sup>(١)</sup>.

(١) أبو حيان - أعلام العرب ص ١٧، ١٨.

وإذا كان دور الأم بهذه الخطورة وجب عليها أن تتبع القواعد الصحيحة للتربية، وتتنبه إلى أى شىء يصدر منها، فهو مؤثر على الطفل حتماً، فمرحلة الطفولة مرحلة تقليد خالص، كما أن نداء الطفل بالأسماء المدللة يؤثر على شخصيته كما تقدم، والأغاني التى ترددها أمامه إذا كانت ترقصه مثلاً وسيلة فعالة من وسائل التربية وتخطيط السلوك. كانت هند بنت عتبة ترقص ولدها معاوية بقولها:

إن بنى مُعْرِقٍ كَرِيمٍ      مَحَبَّبٍ فِي أَهْلِهِ حَلِيمٍ  
 لَيْسَ بِفَحَّاشٍ وَلَا لَثِيمٍ      وَلَا بِطَخْرُورٍ وَلَا سَائِمٍ  
 صَخْرَ بَنِي فَهْرٍ بِهِ زَعِيمٍ      لَا يَخْلِفُ الظَّنَّ وَلَا يَخِيمُ

المعرق = أصل الشرف، الطخرور = من لا جلد عنده ولا ثبات، ومعنى لا يخيم لا يجبن. ومثل هذه الأقوال التى تقرر أذن الطفل فى وقت مبكر تبعث فيه صفات الرجولة، وتعلقه بهدف سام كبير. وقد مرّ أنها كانت تعدّه ليسود غير قومه لا ليسود قومه فقط. وجاء فى أمالى القالىء<sup>(١)</sup> أن أم الفضل بنت الحرث الهلالية كانت ترقص ابنها عبد الله بن العباس وتقول:

ثكلت نفسى وثكلت بكرى      إن لم يسد فهرا وغير فهرا  
 بالحسب العدّ وبذل الوفرا      حتى يوارى فى ضريح القبرا

ومن هنا تظهر قيمة الأم المتعلمة الفاهمة الواعية، والأم المتدينة التى تنشئ ولدها على شاكلتها، والمرأة العربية كانت تجيد تربية أطفالها وتكيفهم حسب البيئة التى يعيشون فيها والمهام التى تنتظرهم. وكانت لها فى ذلك وصايا وقواعد منتزعة من واقع الحياة. يقول العقاد فى كتابه «الصديقة بنت الصديق»: إن المرأة العربية برعت فى أحوال الحمل والوضع، فقد سئلت فاطمة بنت الحرثب - رويت عن أميمة أم تأبط شراً - : أى بنيك أفضل؟ فقالت: والله

(١) ج ٢ ص ١١٨.

لا أدري، إني ما حملت واحداً منهم تُضَعَا، ولا ولدته يَتْنَا، ولا أرضعته غَيْلاً، ولا منعتَه قَيْلاً، ولا أتمته تَعْدًا، ولا سقيته هَدْبَدًا، ولا أطعمته قبل رئة كبدًا، ولا أبته على ماقه. وروى مثل هذا الكلام عن ليلى بنت عبد الله بن الرحال بن شداد الأخيلية، لما سألها الحجاج عن ولدها<sup>(١)</sup>.

تضعَا = عقيب الحيض، ومثله الوُضْع. والتُّضْع بسكون الضاد، والحمل على أثر الحيض مكروه عند العرب خشية تلوث النطفة بالدم في رأيهم - ومعنى يَتْنَا منعكسًا، فولادة المنعكس عسيرة، وقد تصاب عظامه، ومثله الأتن والوتن، كما في كتاب «كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ» لأبي يوسف يعقوب بن إسحق السكيت. ومعنى غَيْلاً: زمن الحمل، فإن اللبن يكون غير جيد، ومعنى قَيْلاً عند القيلولة، فارضاع الطفل حينئذ ينقع غلته، ولا يعرضه لأذى الإرواء بالماء، وهو في البادية قليل الصفاء. ومعنى تَعْدًا أن يكون في موضع صعب أو وخم يؤرقه ويؤذيه وخامة هوائه. ومعنى هَدْبدا اللبن المتكبد، الذي تجمد معظمه ولأن بعضه، وهو دليل فساده، وإطعام الرئة والكبد صعب الهضم على معدة الطفل، والمبيت على ماقه أي غضب وكمد، وهو ضارٌّ بالرجال فضلاً عن الأطفال.

وكانت هذه العناية بالتربية نَبْعًا من تجاربها، يقول النبي - ﷺ - : «نساء قريش خير نساء ركب الإبل، أحناه على طفل وأرعاه على زوج في ذات يده»<sup>(٢)</sup> وقد اشتهر في العرب نساء أنجبن أبطالاً وضرب بهن المثل، ومنهن:

١ - ماوية بنت عبد مناة بن مالك، من تميم. وهي أم لقيط وحاجب وعلقمة ومعبد بنى زرارة بن عدس، وكلهم سادة.

٢ - فاطمة بنت الخُرْشُب الأثمارية، فقد ولدت لزياد العبسي الكمّلة، وهم: ربيع وقيس وأنس وعمارة، وكل منهم ساد في الجاهلية، وقد سئلت: أي

(١) أعلام النساء لعمر كحالة.

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة ج ١٦ ص ٨٠.

بنيك أفضل؟ فقالت: الربيع بل قيس بل أنس بل عمارة، ثم قالت: ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها.

٣ - أم البنين، وهي ابنة عمرو بن عامر الفارس البطل، ولدت مالكا ملاعب الأسنه، وطفيلاً الفارس، وربيعه الكريم، الذي كان يسمى زبيح المقتربين، وسلمياً البطل المخاطر، ومعاوية الحكيم الحلیم. وهي التي افتخر بها حفيدها الشاعر لبید بن ربیعة أمام ملك الحيرة النعمان بن المنذر في قوله:

نحو بنو أم البنين الأربعة      ومن خيار عامر بن صعصعة

(هم خمسة لكن أخاه كان ميتاً حين افتخر)

٤ - عاتكة بنت هلال بن مرة، ولدت لعبد مناف بن قصي، هاشماً وعبد شمس والمطلب، وهم سادة قريش.

٥ - خبيثة بنت رباح بن الأشل الغنوية، ولدت لجعفر بن كلاب، خالداً ومالكا وربيعه<sup>(١)</sup>.

هذه هي قيمة الأم وأثرها في تربية النشء، فالواجب عليها أن تليها بنفسها أو تشرف عليها بصدق، ولا تكلها إلى غيرها من خدم أو أقارب ونحوهم، فإن الأم أخلص في التربية وأدق. وأوعى بما يجب للأطفال وما يصلح لهم، وصاحبة الحنان الذي لا يعوض. ذلك إلى جانب حمالية النشء من الصور الشاذة التي تنطبع في أذهانهم بالمرعجات والصور الخرافية والقصص الكاذب، ومهما كانت الخادم من الثقافة، ومهما كانت دور الحضانة من الإعداد فإن الحنان مفقود أو قاصر، وهو دافع لعاطفة الولد في أشد الحاجة إليه في هذه السن. يقول «أندريه موروا» في كتابه «فن الحياة» الأم بالنسبة لطفلها بمثابة بعض الملائكة، وإذا سهرت عليه فأنها تكون منبع كل المسرات وكل الحياة. وإذا عنيت به مجرد عناية فأنها تظل الشخص الذي يحو الألم ويمنح الغبطة. فهي الملجأ الأعظم

(١) كتاب المرأة في الشعر الجاهلي - للدكتور أحمد الحوفي.

الذى يجلب الدفء والراحة والصبر والحب، وطفل الأم بالنسبة إليها بمثابة إله... ثم الطفل إذا أسعده حظه بأم هي أم حقيقية تعلم منها فى باكورة حياته كيف يمكن أن يكون الحب كاملاً، وغير أنانى، وحب الأمومة يدل الطفل على أن الدنيا ليست فى جملتها وتفصيلها بالمنطوية على العداء، وأن من الممكن العثور دائماً على الحنان والعطف، وأن فى الدنيا أناساً يمكن منحهم الثقة التامة فى سداجة وعدم تحفظ، ويمنحون كل شىء دون أن يطلبوا شيئاً فى مقابل ما يمنحون، ومن أعظم الأمور بدء الحياة فى مثل هذا الجو «ص ٣٦، ٣٧».

### المعلمون :

إن الوالدين يرعيان ولدهما فى السنوات الأولى، ثم يسلمانه إلى المعلم أو المؤدب بلغة العصر القديم، بعد أن يكون قد استقل إلى حد ما فى مظاهر الرعاية الجسمية. وإذا كان الوالدان ممن يحسان مهنة التعليم كان تعليمه استمراراً لرعايته حتى يشب ويصير رجلاً، فالمعلم هو الذى يتابع مهمة الوالدين، ويتعهد الغرس الذى غرساه فعمله مكمل لعملهما، غير أن مهمته تكون أكبر فى ناحية العلم والمعرفة، وأثره يظهر فيهما أوضح من ظهوره فى ناحية الخلق والسلوك. ومهما يكن من شىء فلا بد من التعاون ليكمل كل نقص الآخر.

والمعلم فى المدرسة يعلم النشء ويظهر الثقافة ويربى الجسم أيضاً كما يربى عقله، ويربىه خلقياً بالقدوة والإرشاد، وذلك عن طريق الدروس الدينية والنشاط الاجتماعى والدينى فى المناسبات، وبغير ذلك من الوسائل. والذين باشروا تربية النشء فى صدر الإسلام فريقان، فريق خاص لا يتعهد الطفل ضمن مجموعة من التلاميذ فى المدرسة أو فى مكان آخر، ولكن يربيه فى منزل أبيه بمفرده أو مع إخوته. وكان الأغنياء هم الذين يستطيعون إحضار المربي لتربية أولادهم، وفريق عام يشرف على تربية أفراد فى المساجد والكتاتيب والمدارس. وكان يطلق على المربي الخاص اسم المؤدب، أخذاً من الأدب وهو الخلق أو المعرفة بثقافة العرب وغيرهم، ولا يتولى هذا العمل إلا المشهورون الذين يستحقون أن يغشوا قصور السلاطين والعظماء، ويكونون كأعضاء الأسرة فى التشريف والتكريم.

المعلم يقوم بمهمة سامية كبيرة، وهي واجبة على كل من يستطيع ذلك، وقد حرم الدين الامتناع عنها نظراً لأهمية العلم والخلق في تكوين المجتمع الصالح، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وقال: ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. وقال: ﴿وَإِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لِيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

ومع وجوب التعليم رغب فيه، وجعل للمعلمين شرفاً وفضلاً كبيراً، يقول النبي ﷺ - : « لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضى بها ويعلمها»<sup>(١)</sup>. ويقول: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله»<sup>(٢)</sup> إلى غير ذلك من الأحاديث. وكان المربون موضع احترام الناس لشرفهم وشرف مهمتهم، وحظي بذلك على الأخص من قاموا بالتعليم حسبة لله في المساجد. وقد نُصح أحد الخلفاء برسالة هامة جاء فيها: واعلم أن مواقع العلماء من ملكك مواقع السُّرُج المتألقة والمصابيح المعلقة. وعلى قدر تعاهدك تبذل من الضياع، وتجلو بنورها الأشياء، وقال يحيى بن أكثم: قال لي الرشيد: ما أنبل المراتب؟ قلت: ما أنت فيه يا أمير المؤمنين. قال: فتعرف أجل مني؟ قلت: لا، قال: لكنني أعرفه، رجل في حلقة يقول: حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله. قلت: يا أمير المؤمنين هذا خير منك وأنت ابن عم رسول الله وولي عهد المسلمين؟ قال: نعم، وذلك خير مني، لأن اسمه مقترن باسم رسول الله لا يموت أبداً، ونحن نموت ونفنى، والعلماء باقون ما بقى الدهر»<sup>(٣)</sup>.

(١) رواه البخارى ومسلم عن ابن مسعود.

(٢) رواه مسلم عن أبى مسعود البدرى.

(٣) الآداب الشرعية لابن مفلح الحنبلى المتوفى سنة ٧٦٢هـ ج ١.

وكانت منزلة المؤدبين في أعلى منزلة خصوصاً إذا علّموا حسبة الله، كما قدمنا، لأنهم يعلمون لوجه الله في عفة وزهد وكرامة. لقد اجتمع علماء ما وراء النهر وأقاموا مآتم العلم، عندما بلغهم خبر بناء المدرسة النظامية في بغداد، وقالوا: كان يشتغل بالعلم أرباب الهمم العلية والأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به، وإذا صار عليه أجره تدانى إليه الأخصاء وأرباب الكسل، فيكون ذلك سبباً لمهانتهم وضعفه<sup>(١)</sup>. غير أن بعض العلماء كان يزهد في هذه الوظيفة بعداً عن المناصب، وشكاً في أموال السلاطين، ومنهم الخليل بن أحمد.

ومن المؤدبين المشهورين علي بن الحسن الأحمر المتوفى سنة ١٩٤هـ مؤدب الأمين بن الرشيد، وعامر الشعبي والضحاك بن مزاحم المتوفى سنة ١٠٥هـ مؤدب أولاد عبد الملك بن مروان، ومحمد بن هشام الزهرى مؤدب ابن هشام بن عبد الملك، ويحيى بن خالد البرمكى والكسائى مؤدباً الرشيد وابنه الأمين.

أما معلمو الكتاتيب فكانوا في منزلة أقل، وقد عزف كثير عن تولي هذه المهمة وأصبحت عبارة «معلم صبيان» مثلاً يضرب للضعف والامتهان، غير أن منهم من كان موضع التقدير والاحترام كالكميت بن زيد وعبد الحميد الكاتب وقيس بن سعد<sup>(٢)</sup>.

ومن طرائف الأخبار عن معلمى الكتاتيب ما يقوله الجاحظ: مررت بمعلم صبيان وعنده عصا قصيرة وعصا طويلة وصولجان وكرة وطبل وبوق. فقلت له: ما هذا؟ فقال: عندي صغار أوباش، أقول لأحدهم: اقرأ لوحك، فيصفر لى، فأضربه بالعصا القصيرة، فيتأخر فأضربه بالعصا الطويلة، فيفر من بين يدي فأضع الكرة في الصولجان وأضربه فأشجّه، فيقوم إلى الصغار كلهم بالألواح، فأجعل الطبل في عنقي والبوق في فمى، وأضرب الطبل وأنفخ في البوق، فيسمع أهل الدرب ذلك فيسارعون إلى ويخلصوننى منهم<sup>(٣)</sup>. لكن أمثال هذه الأخبار قد

(١) كشف الظنون ج ١ ص ١٥. (٢) تاريخ التربية ص ٢٠٠.

(٣) مجلة الوعي الإسلامى صفر ١٣٩٤هـ.

يكون مبالغاً فيها لتشويه صورة المعلمين للأولاد . وفي كتب الأدب والفكاهة كثير من هذه الافتراءات .

وكما تقدم كان المعلمون في المساجد يؤدون واجبهم حسبة لله، وكانوا يكسبون من عمل يدهم، وذهبت طائفة من الفقهاء كالحنفية جميعهم وأحمد ابن حنبل وسفيان الثوري إلى أنه لا يجوز أن يأخذ المعلم أجراً على تعليم القرآن والحديث<sup>(١)</sup> وقد رفض الحارث بن محمد أن يأخذ الرزق الذي رتب له عمر بن عبد العزيز حينما أرسله ليعلم الناس بالبادية . والضحاك بن مزاحم المتوفى سنة ١٠٥ هـ وعبد الله بن الحرث كانا معلمى أطفال ولا يأخذان أجراً، ولم يرتب للمعلمين أجر إلا عندما كانوا يكلفون بذلك، إما كمؤدبين في البيوت وإما كمدرسين في المساجد لنشر مذهب معين أو للتحديث في موضوع يهم الوالى - كما سبق بيانه في عمل معاوية مع القصاص - وعندما أنشئت المدارس كالمدارس النظامية، ومع ذلك كان بعضهم يتعفف عن هذا العمل على الرغم من سخاء المكافأة .

وكانت الحالة المالية لمعلمى الكتاتيب سيئة، نظراً لزهادة بعضهم فى الأجر، أو لعدم الإقبال عليهم، لَمَّا كان يشاع عن بعضهم من أقاويل تزهد الناس فيهم، أما المؤدبون لأولاد العظماء فكانت حالتهم المالية حسنة جداً . وحسبك أن تعلم أن على بن الحسن الأحمر كان معلماً للأمين بن هارون الرشيد، فلما دخل فرش له البيت بفرش حسن، وكان الخلفاء إذا أدخلوا مؤدباً إلى أولادهم فجلس فى أول يوم أمروا بعد قيامه بحمل كل ما فى المجلس إلى منزله، مع ما يوصل به من الدواب ويوهب له، فلما أراد الأحمر أن ينصرف إلى منزله دُعِيَ من يحمل له ذلك، فقال الأحمر: والله ما يسع بيتى هذا، فما لى إلا غرفة لا يدخلها غيرى، فأمر الرشيد بشراء دار له وجارية، وحمل على دابة ووهب له غلام . يقول محمد ابن الجهم: كنا إذا أتينا الأحمر تلقانا الخدم، فندخل قصرًا من قصور الملوك، ويخرج علينا الأحمر وعليه ثياب الملوك<sup>(٢)</sup> .

(٢) تاريخ التربية ص ٢١٦ - ٢٢٥ .

(١) سيأتى توضيح ذلك .

## الفصل الثالث

### فى عمل المربى

هناك ثلاثة آراء فى طبيعة الطفل، هل هى خيرة أو شريرة أو قابلة للخيرية والشرية، الرأى الأول يقول: إن طبيعة الإنسان خيرة، وعليه سقراط وكذلك زينون الرواقى الذى يقول إن الطبيعة العامة خيرة لصدورها عن الله وهو خير، ولا يصدر عنه إلا الخير، فالإنسان - وهو أثر من آثار الطبيعة - كذلك خير، ومثل هؤلاء جان جاك روسو الفرنسى الذى كان يردد مثل هذا القول فى القرن الثامن عشر، ويرى أن يترك المربى الطفل حراً طليقاً<sup>(١)</sup>.

والرأى الثانى يقول: إن طبيعة الإنسان شريرة، فتجب مصادرة ميوله ومعارضة نزعاته، بالحرمان من اللذة الدنيوية. وعلى هذا الرأى البراهمة والبوديون، بناء على مذهبهم العام فى الزهد والاجتهاد فى التخلص من الحياة. وعليه أفلوطين وأبو العلاء المعرى الذى كان يردد ذلك كثيراً فى شعره، ومنه:

فظن بسائر الإخوان شراً  
فلو خبرتهم الجوزاء خُبرى  
ولا تأمن على سرفؤادا  
لما طلعت مخافة أن تكادا  
وقال أيضاً:

وفضيلة النوم الخروج بأهله  
ومنه قول الآخر:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب  
والرأى الثالث يقول: إن الطفل يولد وهو قابل للخيرية والشرية. وهذا هو الرأى السديد الذى مال إليه الغزالي كما تقدم. وبناء على رأيه قال فى معرض كلامه عن رياضة الصبيان: فإن الطفل بجوهره خلق قابلاً للخير والشر، وإنما أبواه

(١) الأخلاق لجاد المولى وسلمان ص ٦٧.

يميلان به إلى أحد الجانبين. وعلى هذا الرأي ابن خلدون، وإن كان يرى أن ميل الطفل إلى الخير أكثر من ميله إلى الشر، وقد نص على ذلك عند كلامه على أن من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس، فقال: لما كان الملك طبيعياً للإنسان لما فيه من طبيعة الاجتماع وكان الإنسان أقرب إلى خلال الخير منه إلى خلال الشر بأصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة، لأن الشر إنما جاءه من قبل القوة الحيوانية التي فيه، وأما من حيث هو إنسان فهو إلى الخير وخلاله أقرب... اهـ.

ويؤيد هذا الرأي المختار قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ \* وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ \* وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ٨-١٠]. وقوله: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا \* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس: ٧، ٨]. وقوله: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣].

إن عمل المرءى يتناول، ما يتأثر به الطفل من الوراثة والبيئة معاً، أى المجال الذاتى الباطنى، والمجال الخارجى الظاهر، وأساس عمله هو اكتشاف هذه المواهب الموروثة ومراقبة المؤثرات التى تؤثر فيه، ومحاولة الانتفاع بذلك فى توجيهه نحو الخير. كالبستاني الذى لا يد له فى خروج النبات من البذور ونمائه، فتلك مهمة قوة أخرى خارجة عن إرادته، وإنما كل ما يستطيعه هو وقايته مثلاً من العاصفة أن تكسره، ومن حرارة الشمس أن تجففه، ومن الحشرات والأيدى العابثة أن تمتد إليه.

إن مهمة المرءى حيال المجال الباطنى صعبة، لأن الطفل كما قدمنا غُصنٌ فى شجرة معمرة يحمل خصائصها ويتوارثها، وكل ما يستطيعه هو اكتشاف مواهبه واستعداداته ليستفيد منها ويوجهها الوجهة الصالحة، ويتجنب ما يعوق دفعها القوى الذى لا يغالب. ذلك أن بعض الموروثات تكون من الشدة والقوة بحيث لا تفيدها التربية، خصوصاً إذا كانت بطريق الكبت والعنف. وهو ما يعنيه قول بعضهم: الطبع يغلب التطبع. وما رواه البيهقى فى شعبه عن الأصمعى

قال : دخلت البادية فإذا بعجوز بين يديها شاة مقتولة وجرو ذئب مُقَع، فنظرت إليها فقالت : أتدرى ما هذا؟ قلت : لا، قالت : جرو ذئب أخذناه وأدخلناه بيتنا، فلما كبر قتل شاتنا، وقلت فى ذلك، قلت : ما هو؟ فأنشدت :

أكلت شويهتي وفجعت قلبى      وأنت لـشـاتنا ولد ربيب  
غذيت بدرها وربيت فينا      فمن أنبأك أن أباك ذيب  
إذا كان الطباع طباع سوء      فلا أدب يفيد ولا أديب

ومهمة المربي حيال المجال الظاهر فى البيئة سهلة بالنسبة إلى المجال الباطنى، فهو يستطيع أن يعرف أى نوع من الناس والأشياء ينبغى أن يتأثر به، وإن كان ذلك يحتاج إلى جهد كبير، ذلك أن منابع التأثير ربما لا يتحكم فيها المربي أو يستطيع علمها، فهل يستطيع الوالد مثلاً أن يحيط بكل ما يتأثر به ولده، محادثات مع زملائه فى المدرسة، أو بما يطرق سمعه من أحاديث الناس فى الشوارع أو ما يراه من صور معروضة فى الطرق والصحف وغيرها؟ وهل المعلم يستطيع أن يعلم كل شىء يؤثر فى الطفل وهو فى بيت أبيه؟ ولكن مهما يكن من صعوبة الأمر فلا ينبغى أن يقعدنا ذلك عن القيام بواجبنا بقدر المستطاع . وسواء أكان الطفل يولد أميل إلى الخير أم إلى الشر أم هو إليهما على حد سواء، فإن المربي تقوم مهمته على الإفادة من غرائزه وميوله، وتكيفه بالبيئة على وجه يسلم به إلى الخير، ولا ينبغى أبداً أن نهمل عامل الوراثة فى التربية ونلقى الحمل كله على المربي، ومن قال : إن الطفل عجينة فجة فى يد والديه يستطيعان أن يشكلاه ويميلان به إلى حيث يريدان - لا ينسى أبداً عامل الوراثة فى التحكم فى سلوك الطفل . وحديث ولادته على الفطرة لا يلغى أثر الوراثة، بل يبين أهمية البيئة والدور الذى يقوم به المربي، أو يراد به الاهتمام بغرس العقيدة فى نفسه منذ الصغر، حتى تثبت فى نفسه ويشب عليها، والمربي قادر مع كل هذه الاعتبارات على خلق صورة وشكل لمادة لها خصائصها المعينة التى لا يد له فيها .

## الفصل الرابع

### فى واجبات المربى

واجبات المربى كثيرة نقتصر على بعض منها فيما يلى :

١ - لا يستطيع المربى أن ينجح فى مهمته إلا إذا كان عالماً بأصول التربية، مُلمّاً بقواعدها الفنية، التى تهديه إلى وضع الشىء فى موضعه، واختيار الأسلوب المناسب، والمادة التى تتحملها طاقة الناشئ، على ضوء اكتشاف المواهب وترويض المؤثرات، لاستخدامها فى التوجيه المطلوب.

والدراسات النفسية والتربوية، والإلمام بقواعد الصحة، ومعرفة العلاقة بين التأثيرات النفسية والجسمية والعقلية لابد منها لبلوغ الغاية المرجوة من التربية.

والتربية - كما يقول ابن عبدون - صناعة تحتاج إلى معرفة ودربة ولطف، فهى كالرياضة للمهر الصعب الذى يحتاج إلى سياسة ولطف وتأنيس حتى يرتاض ويقبل التعليم - والمربى الفنى - كما يقول الغزالي - لا يشرك التلميذ الذكى مع الغبى فى التلقى فهو تقصير فى الذكى وإرهاق للغبى، وهو الذى يوجه التلميذ إلى العلم الذى يناسبه بعد اختباره ومراقبته، كما يذكر ابن جماعة<sup>(١)</sup>. وقد أرشد محمد بن الحسن تلميذه الإمام البخارى إلى أن يتعلم الحديث بدل الفقه، لأنه أليق به فصار فيه مقدا<sup>(٢)</sup>.

يقول الماوردى فى كتابه «أدب الدنيا والدين»<sup>(٣)</sup>: وينبغى أن يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه، ليعطيه ما يتحملة بذكائه أو يضعف عنه ببلادته. فإنه أروح للعالم وأنجح للمتعلم. اهـ.

ومما يدل على لزوم هذه الفنية للمعلم واهتمام الأولين بها، نصيحة الرشيد للأصمعى قبل أن يباشر عمله معه كمعلم أو جليس، قال: يا أبا عبد الملك،

(١) تذكرة السامع ص ٥٧. (٢) تاريخ التربية ص ١٩٠، ٢٨٧، ٢٨٨.

(٣) ص ٧٤.

أنت أعلم منا ونحن أعقل منك، فلا تعلمنا فى ملا، ولا تسرع إلى تركيز فى خلا، واركنا حتى نبتدئك بالسؤال، فإذا بلغت من الجواب قدر الاستحقاق فلا تزد، إلا أن نستدعى ذلك منك، وانظر إلى ما هو اللطف فى التأديب وأنصف فى التعليم، وأبلغ بأوجز لفظ غاية التقويم<sup>(١)</sup>.

إن الجاهل بالقواعد الصحيحة للتربية لا يوفق فى مهمته، فقد يريد أن ينفع فيضر من حيث لا يدري، والعقد النفسية والاضطرابات العصبية واتجاهات السلوك يرجع كثير منها إلى آثار انفعالات حصلت فى أيام الطفولة، نتيجة الجهل بأساليب التربية الصحيحة.

وإذا كان للمربين فى المدارس دراسات خاصة فى هذا المجال فالواجب أن يكون للآباء والأمهات قدر كبير منها، ووجوب ذلك فى حقهم أكد، وذلك لخطورة المرحلة التى يعيش فيها الناشء بين أبويه، فهى الأساس الذى يقوم عليه بناء التربية، لا بد أن يوضع على قواعد علمية متينة حتى يُطمأن إلى ما يُشاد فوقه من طوابق.

قرأت من فنية التربية أن تلميذاً لم ينهض من فراشه صباحاً ليذهب إلى المدرسة كعادته، فسألته أمه عن السبب فقال: إنى مريض، فلم تعنفه، ولكنها أظهرت له اهتمامها بمرضه وألزمته الفراش، ولما انتهى موعد الذهاب إلى المدرسة فطن أن أمه لن تؤاخذة على هذا الادعاء، فنهض من سريره، فأعادته أمه إليه لأن المرض يستلزم ملازمة الفراش، وكلما هم بالنهوض أعادته، حتى انتهى اليوم، فأحس التلميذ بشدة الضيق وكان يريد أن يمضى هذا اليوم فى اللعب، فلما كان الصباح التالى بكرّ ناهضاً وذهب إلى المدرسة من تلقاء نفسه، لأن المدرسة على ما فيها أهون من ملازمة السرير.

ولحرص العقلاء المقدرين لخطورة هذه المرحلة على مصلحة أولادهم باشروا تربيتهم بأنفسهم ولم يسلموهم إلى الخدم، فإن لم تسعفهم الظروف للقيام

(١) أدب الدنيا والدين ص ٧٥.

بذلك أستعانوا بمربيات متخصصات فى هذا الفن، أعددن إعداداً مناسباً فى معاهد أنشئت لهذا الغرض. وهؤلاء المربيات فى المنزلة الأدبية والمادية قد يَفْقَنَ غيرهن بكثير، والواجب أن تدرس مبادئ التربية للجنسين معا قبل إقدامهما على الزواج.

٢ - المربي - وبخاصة المعلم - لا بد أن يكون ذا مقدرة علمية فى النوع الذى يعلمه للأولاد على الأقل، - إلى جانب خبرته الفنية - متمكناً من كل ما يريد أن ينقله إليهم من علم ويعطيهم من توجيه، وأن يكون مستعداً للإجابة على الأسئلة الموجهة إليه، وما أكثرها لدى الأطفال والمراهقين المولعين بالاستطلاع، على أن هناك مسائل شائكة كالتى تتعلق بالجنس، واللباقة هنا عليها معول كبير. وإذا كان السؤال يمس حكماً شرعياً يهم المراهقين والمراهقات فلا بد من الإجابة الصحيحة بالأسلوب الحكيم، ولا حياء فى الدين كما قررتة السنة الصحيحة. فعن عائشة قالت: نعم النساء نساء الأنصار لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين<sup>(١)</sup>.

والمعلم بهذا يجب أن يكون على ثقافة واسعة لمواجهة الأسئلة التى يلح الناشئ فى طلب الجواب عنها، وعلى المعلم إذا لم يستطيع الإجابة الشافية أن يقول فى صراحة: لا أدري، فذلك أولى من تضليل السائل بالأجوبة الخطأ، لأن وقوفه عند حد علمه يربى فى الناشئ خلق الأمانة، ويعوده الدقة، ويكسبه ثقة فى معلمه. تلك الثقة التى تفقد حتماً لو تلقى جواباً ظهر له بطلانه بعد، والثقة من أهم العوامل فى استجابة المتعلم إلى معلمه. وقد سئل النبي ﷺ عن خير البقاع فى الأرض وشرها فقال: لا أدري حتى نزل جبريل فسأله فقال: لا أدري إلى أن علمه من الله عز وجل أن خير البقاع المساجد وشرها الأسواق، رواه أحمد وأبو يعلى والبخارى والحاكم وصححه من حديث ابن عمر<sup>(٢)</sup>. وروى عنه أنه قال: «العلم ثلاثة، كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدري» رواه مالك موقوفاً على ابن عمر.

(٢) الإحياء ج ١ ص ٦٢.

(١) رواه البخارى ومسلم.

ورواه أبو داود وابن ماجه مرفوعاً<sup>(١)</sup>. وورد عنه أنه قال: «ما أدرى أعزير نبي أو لا، وما أدرى أتبع ملعون أم لا، وما أدرى ذو القرنين نبي أم لا» رواه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة، وروى عن الإمام علي أنه قال: وما أبردها على القلب إذا سئل أحدكم فيما لا يعلم أن يقول: الله أعلم<sup>(٢)</sup> وكتب سليمان إلى أبي الدرداء - وقد آخى النبي بينهما - يا أخى بلغنا أنك قعدت طبيباً تداوى المرضى، فانظر إن كنت طبيباً فتكلم، فإن كلامك شفاء، وإن كنت متطبباً فالله الله لا تقتل مسلماً. وقال ابن مسعود: جنة العالم لا أدرى، فإن أخطأها فقد أصيبت مقاتله، ومن الفقهاء والأئمة من كان يقول: لا أدرى، أكثر من قوله: أدرى، منهم سفيان الثوري ومالك وأحمد بن حنبل والفضيل بن عياض وبشر ابن الحارث<sup>(٣)</sup>.

٣ - وأقوى طريق يصل إلى نفس الناشئ هو القدوة من الوالد والمعلم، لأن النفوس جبلت على تقليد الصغير للكبير والضعيف للقوى، والناشئ يرى في مربيه المثل الأعلى، وهو في سنه المبكرة أسرع إلى التقليد، وأقوى استجابة لما يوحى به المربي، كما أن ما يتلقاه عن هذا الطريق يكون أرسخ في ذهنه ونفسه، لأنه تسرب إليه بطريقة تلقائية، ولإيمان الصغير بصدق ما يعمله المربي وصحته وفائدته، لأنه يمارسه ويرتضيه، وكثيراً ما يكون الصغير صورة مصغرة لأبيه وعنواناً واضحاً على سلوكه. ومن قول الحكماء في ذلك: الولد سر أبيه، ومن يشابهه أبه فما ظلم، وما أشبه حجل الجبال بألوان صخرها

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ويفسدهم رب الفساد إذا فسد<sup>(٤)</sup>

وكان رسول الله ﷺ أعظم قدوة في العلم والخلق، لأن علمه من الله وخلقته القرآن، وهو هدى الله. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١] وقد أدرك الأولون خطر

(٢) أدب الدنيا والدين ص ٦٦.

(٤) العقد الفريد ج ١ ص ١٩٣، ٢٤٩.

(١) المصدر السابق ص ٦١.

(٣) الإحياء ج ١ ص ٦١، ٦٢.

القدوة ودور المعلم فيها فأوصوا أن يختار المربي من النماذج الطيبة علماً وخلقاً، وإذا كانت الثقة أغلى ما يحرص عليه المربي وأقوى عامل في التأثير على الناشئ كان الواجب أن يحرص عليها، فيضم إلى متانة العلم متانة الخلق، كما يجب أن يعلم الوالد أن تدينه يورث البركة له ولأولاده حتى تبلغ السابع منهم، وذلك إما مكافأة من الله له أن يرى أثر تدينه في أولاده. وإما بتقليد الأولاد له ونشوتهم على مثاله، فيأتيهم الخير والبركة بكسبهم وسلوكهم. قال تعالى في شأن الغلامين اللذين أقام الخضر جدارهما ليحفظ لهما الكنز ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢] وذكر المفسرون أنه كان الجد السابع، وأخرج الإمام أحمد عن وهب أن الرب قال في بعض ما يقوله لبنى إسرائيل: إني إذا أطعت رضيت، وإذا رضيت باركت، وليس لبركتي نهاية، وإذا عصيت غضبت، وإذا غضبت لعنت، ولعنتي تبلغ السابع من الولد<sup>(١)</sup>.

إن العلماء لم يرتضوا أن يكون سلوك المربي متناقضاً مع علمه، لأن ذلك يشكك المتعلم في قيمة ما يعلمه إياه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ \* كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣]، وقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] وقال تعالى إخباراً عن شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨] وورد عن النبي ﷺ أنه قال: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحا، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت أمر بالمعروف ولا آتية، وأنهى عن المنكر وآتية»<sup>(٢)</sup>. والأقتاب هي الأمعاء، واحداها قتب، ومعنى تندلق تخرج، وقال: «مررت ليلة أسرى بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من أنتم؟ فقالوا: كنا نأمر بالخير ولا نأتيه، وننهي عن الشر ونأتيه»<sup>(٣)</sup>.

(١) الزواجر لابن حجر الهيتمي ص ١٤.

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد بن حارثة.

(٣) رواه ابن حبان عن أنس.

ويقول الحسن : لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ويجرى في العمل مجرى السفهاء . ويقول ابن المقفع : معلم نفسه أحق بالترفضيل من معلم الناس . وقال عمرو بن عتبة لمعلم ولده : ليكون أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسنت ، والقبيح لديهم ما تركت [ نسب مثلها في عيون الأخبار لابن قتيبة ج ٢ ص ١٦٦ إلى عتبة بن أبي سفيان ] وقال مالك بن دينار : إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل المطر عن الصفا ، وقال الشاعر :

يا واعظ الناس قد أصبحت متهما      إذ عبت منهم أمورا أنت تأتيها  
أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهدا      والموبقات لعمري أنت جانيها  
تعيب دنيا وناسا راغبين لها      وأنت أكثر منهم رغبة فيها

وقال أبو الأسود الدؤلي « المتوفى سنة ٦٩ هـ » :

يا أيها الرجل المعلم غيره      هلا لنفسك كان ذا التعليم  
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى      كيما يصح به وأنت سقيم  
ما زلت تلقح بالرشاد عقولنا      عظة وأنت من الرشاد عقيم  
ابداً بنفسك فانهها عن غيرها      فإذا انتهت عنه فأنت حكيم  
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى      بالقول منك وينفع التعليم  
لا تنه عن خلق وتأتى مثله      عار عليك إذا فعلت عظيم<sup>(١)</sup>

وقد قرر العلماء أن وزر العالم في معاصيه أكبر من وزر الجاهل . إذ يزل بزلته عالم كثير ، وفي الحديث الشريف « ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء »<sup>(٢)</sup> . ولذلك يقول على رضى الله عنه : قصم ظهري رجلا ، عالم متهتك وجاهل متنسك ، فالجاهل يغير الناس بتنسكه ، والعالم يغيرهم بتهتكه ، وإذا ارتضى بعض الناس قول القائل :

(١) سراج الملوك للطرطوشي ص ٢١٧ والإحياء ج ١ ص ٥٦ .

(٢) رواه مسلم عن جرير .

اعمل بعلمي ولا تنظر إلى عملي      ينفعك علمي ولا يضررك تقصيري  
فلا ينبغي أن يكون ذلك إلا للكبار العقلاء الذين يفرقون بين الحق والباطل  
والخير والشر، وبين القول وقائله، وأما الأطفال فليست عندهم هذه المقدرة، فهم  
يحسبون بل يعتقدون أن عمل المرءى خير وصواب على طول الخط. على أن  
الأكثرية من المرءى رفضوا هذا القول وقالوا: من قال ولا يعمل فقد مكر، ومن أمر  
بما لا يأتى فقد خدع، ومن أسر غير ما يظهر فقد نافق، والمكر والخديعة والنفاق،  
رذائل نهى عنها الدين.

وقد نبه العلماء إلى خطورة انتقاش ما يصدر عن الوالدين عامة فى أذهان  
الأولاد وتقليدهم فيه ونشأتهم عليه، فعن عبد الله بن عامر قال: دعتنى أمى يوماً  
ورسول الله ﷺ قاعد فى بيتنا، فقالت: ها، تعال أعطيك، فقال لها رسول الله  
«ما أردت أن تعطيه»؟ فقالت: أردت أن أعطيه تمرًا، فقال لها «أما إنك لو لم  
تعطيه شيئاً كتبت عليك كذبة»<sup>(١)</sup>. ولهذا يجب على المرءى أن يتجنب الألفاظ  
القبیحة، فإن ذلك يسقط هيئته، كما أن الطفل يتعودها ويستحسنها، لأن مرءیه  
استحسنها. يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه، بنسوا عن البيوت لا تطم امرأة  
أو صبى يسمع كلامكم. فهو يأمر المتحدثين المتشاجرين أن يتعدوا عن البيوت  
حتى لا يتأثر النساء والصبية بما يسمعون منهم من لغو ورفث. ومعنى لا تطم  
لا تزاغ ولا تغلب بكلمة تسمعها من الرفث، وأصله من طم الشيء إذا عظم،  
وطم الماء إذا كثر «نهاية ابن الأثير».

وليكن المرءى عفيف النفس إلى جانب عفة القول، قائماً بالعدل محافظاً  
على كرامته، منظماً فى عمله، ليكسب احترام تلاميذه، يعجبني فى هذا قول  
ابن عبد العزيز القاضى:

(١) رواه أحمد وأبو داود والبيهقى وهو حسن.

يقولون لى فيك انقباض وإنما  
أرى الناس من داناها موهان عندهم  
ولم أقض حق العلم إن كان كلما  
وما كل برق لاح لى يستفزنى  
إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى  
انهنها عن بعض ما لا يشينها  
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى  
أشقى به غرسا وأجنيه ذلة  
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم  
ولكن أهانوه فهان ودنسوا

وأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما  
ومن أكرمه عزة النفس أكرما  
بدا طمع صيرته لى سلمسا  
ولا كل من لاقيت أرضاه منعما  
ولكن نفس الحر تحتمل الظما  
مخافة أقوال العدا: فيم أولما  
لأخدم من لاقيت لكن لأخدما  
إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما  
ولو عظموه فى النفوس لعظما  
محياه بالأطماع حتى تجهما<sup>(١)</sup>

وهناك واجبات أخرى تخص المربي ستأتى فى الحديث عن أسلوب التربية.

\* \* \*

(١) أدب الدنيا والدين ص ٧٦، ونسبها السفارينى فى غذاء الألباب ج ١ ص ٤١ للقاضى  
أبى الحسن الجرجانى .

## الفصل الخامس

### فى مادة التربية

قدمنا أن التربية تقوم على دعامتين أساسيتين، هما تقويم الفكر وتقويم الخلق، ومهمة الوالدين تظهر بوضوح فى تهذيب الخلق، كما أن مهمة العلم تظهر فيما يقوم الفكر، وقد عقد الغزالي فى كتابه الإحياء<sup>(١)</sup> فصلاً خاصاً برعاية الصبيان يقوم معظمه على الآداب والأخلاق، وعقد فى كتاب العلم من الإحياء<sup>(٢)</sup> باباً لأنواع العلوم التى يجب تعلمها ودرجة هذا الوجوب والطرق الصحيحة لتعليمها. وهذان النوعان من التربية فى حاجة إلى بعضهما، ولا يمكن الفصل بين ميدانيهما فصلاً تاماً. والتفريق فى نوع منهما نقص كبير فى التربية. فالعلم تكبح الأخلاق من جماحه، والضمير يعصم العلم من الانزلاق، وكان النبى ﷺ يعلم أصحابه العلم والخلق بالقول والعمل، وكان لهم أسوة حسنة فى كلا الأمرين.

ومما يدل على صلة العلم بالخلق وعدم استغناء أحدهما عن الآخر حرص المسلمين الأولين على تعليمهما لأولادهم معاً، والتركيز بنوع خاص على تقويم الخلق فهو الثمرة الممتازة للعلم. أوصى هشام بن عبد الملك سليمان الكلبى لما اتخذه مؤدياً لولده فقال له: إن ابنى هذا هو جلدة ما بين عينى، وقد وليتك تأديبه، فعليك بتقوى الله وأداء الأمانة فيه بخلال، أولها أنك مؤتمن عليه، والثانية أنا إمام ترجونى وتخافنى، والثالثة كلما ارتقى الغلام فى الأمور درجة ارتقيت معه، وفى هذه الخلال ما يرغبك فيما أوصيك به. إن أول ما أمرك به أن تأخذه بكتاب الله، وتقرئه فى كل يوم عشراً، يحفظ حفظ رجل يريد التكسب به، وروه من الشعر أحسنه، ثم تخلل به فى أحياء العرب فخذ من صالح شعرهم هجاء ومديحاً، وبصره طرفاً من الحلال والحرام والخطب والمغازى ثم أجلسه كل يوم للناس ليتذكر<sup>(٣)</sup>.

(٢) ج ١ ص ١٣.

(١) ج ٣ ص ٦٢.

(٣) محاضرات الأدباء للأصبهاني ج ١ ص ٢٩.

وأوصى عبد الملك بن مروان مؤدب بنيه بقوله: علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن، وجنبهم السفلة فأنهم أسوأ الناس رعة - ورعاً - وأقلهم أدباً، وجنبهم الحشم فأنهم لهم مفسدة، وأحف شعورهم تلغظ رقابهم، وأطعمهم اللحم يَقْوُوا . وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا، ومرهم أن يستاكوا عرضاً، ويمصوا الماء مصاً، ولا يعبوه عباً، وإذا احتجبت إلى أن تنالهم بأدب فليكن ذلك في ستر لا يعلم به أحد من الفاشية فيهنونوا عليه<sup>(١)</sup>.

ووصى الرشيد الأحمر مؤدب ولده الأمين فقال: يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمره قلبه، فصير يدك عليه مبسوطه، وطاعته لك واجبة، فكن له حيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه، ولا تمنع في مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة<sup>(٢)</sup>.

وقال عمرو بن عتبة لمؤدب ولده: ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك، فإن عيونهم معقودة بك، والحسن عندهم ما صنعت، والقبیح عندهم ما تركت. علمهم كتاب الله ولا تملهم منه فيتركوه، ولا تتركهم منه فيهجروه، روهم من الحديث أشرفه، ومن الشعر أعفه، ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في القلب مشغلة للفهم، وعلمهم سنن الحكماء، وجنبهم محادثة النساء، ولا تتكل على عذر منى لك فقد اتكلت على كفاية منك<sup>(٣)</sup>. ونسبت هذه الوصية في النجوم الزاهرة<sup>(٤)</sup> وعيون الأخبار ومحاضرات

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٩٩، تاريخ التربية ص ٣٧.

(٢) المحاسن والمساوي للبيهقي ج ٢ ص ٢١٣ ومقدمة ابن خلدون ص ٣٩٩ وتاريخ

التربية ص ٣٩.

(٤) ج ١ ص ١٢٣.

(٣) العقد الفريد ج ١ ص ١٩٦ وتاريخ التربية ص ٣٨.

الأدباء إلى عتبة بن أبي سفيان، وهو أخو معاوية ولاء مصر بعد موت عمرو بن العاص .

والآداب التي يلقنها الناشئ كثيرة، وهي تتناول قوله وفعله وعقيدته وحاله، في ظاهره وباطنه، ومأكله وملبسه ومسكنه وحركته وسكونه، في أخلاقه الشخصية وسلوكه الاجتماعي، في علاقته بربه وعلاقته بالناس، في الأسرة والمدرسة والمجتمع. وبالجملة في كل شأن من شؤون حياته. ولا يمكن حصر هذه المواد لكثرتها، ولا يمكن ضبطها لاختلافها باختلاف البيئات والعصور. وأكبر كمية من هذه الآداب يتلقاها الطفل عن أبيه وأعضاء الأسرة، والباقي يتلقاه من المدرسة والمجتمع بمؤثراته المختلفة. والنبي ﷺ كان يربي أولاده ومن تحت رعايته ومن يحضر مجلسه ومن كلَّف بتبليغ الرسالة إليهم عامة، بالقول والعمل معاً، يروي البخاري ومسلم عن عمر بن أبي سلمة قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ، فكانت يدي تطيش في الصحيفة، فقال لي رسول الله «يا غلام، سمَّ الله تعالى وكل بيمينك وكل مما يليك» وورد أن الحسن أخذ تمره من الصدقة فجعلها في فيه، فقال رسول الله له بالفارسية «كخ كخ، ارم بها أما علمت أنا لا نأكل الصدقة»<sup>(١)</sup>. كلمة «كخ» بفتح الكاف وكسرهما، وتسكن الحاء ويجوز كسرهما مع التنوين، وهي كلمة يزر بها الصبيان عن المستقدرات. قال الداودي: هي عجمية معربة<sup>(٢)</sup>.

ويهمنا أن نذكر المربي بالاهتمام في تربية الناشئ بما يؤهله لرسالته في الحياة التي تتطلب أخلاق الرجولة والتحمل والمغامرة والروح الاجتماعية. وفي تربية البنت بما يتناسب مع مهمتها كأُم وزوجة تسهم بعملها في توريد الجيل الذي يضطلع بأعباء النهوض بالمجتمع، وأن يأخذ الأولاد بالتربية الدينية منذ نعومة أظافرهم ليشبوا عليها أنسين إليها متعشقين لها كما سيأتي في حديث «مروا أولادكم بالصلاة...». وعن الربيع بنت معوذ قالت: أرسل رسول الله ﷺ

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة. (٢) النووي على مسلم ج٧ ص١٧٥.

غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار التي حول المدينة « من كان أصبح صائماً فليتم صومه، ومن كان أصبح مفطراً فليتم بقية يومه » فكنا بعد ذلك نصومه ونصومه صبياننا الصغار منهم، ونذهب إلى المسجد فنجعل لهم اللعبة من العهن - الصوف - فإذا بكى أحدهم من الطعام أعطيناها إياه حتى يكون عند الإفطار<sup>(١)</sup>.

ومن أعظم النماذج في تربية الأولاد تربية دينية شاملة. ما قصه القرآن الكريم عن لقمان الحكيم<sup>(٢)</sup> حيث أوصى ولده بتصحيح العقيدة التي تأتي الشرك بالله، وبطاعة الله ورقابته وإصلاح نفسه وخلقه ومعاملاته مع الناس. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ \* وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ \* وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ \* يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ \* يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَيَّ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ \* وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ \* وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿ [لقمان: ١٣-١٩].

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) قيل: هو ابن أخي إبراهيم، وقيل: كان ابن أخت أيوب أو ابن خالته، واتفق العلماء على أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً، إلا عكرمة والشعبي فقالا بنبوته، وعلى هذا تكون الحكمة هي النبوة. وقيل: إنه كان عبداً حبشياً نجاراً، وقيل: كان خياطاً، وقيل: كان راعياً غنم، وابنه قيل: اسمه ثاران، وقيل: مشكم، وقيل غير ذلك. وكل هذا لا يثبت دليل مقبول، ولا تهمنا معرفته.

ففى هذه الوصية نقط بارزة تبين أسس التربية الصحيحة، فيها العقيدة الصحيحة التى لا تشرك بالله، وفيها رقابة الله والشعور بالمسئولية لأن الله لا يخفى عليه شىء، وفيها أداء الواجب له أولاً بالصلاة، فهو أول من يؤدى الواجب له، وفيها أداء الواجب للمجتمع بالتوعية التى تنير لهم طريق العمل الصالح، مع التذرع بالصبر والعزم الصادق عند أداء هذا الواجب. وفيها مثل من الأخلاق الاجتماعية التى أساسها الشعور بالمساواة بين الناس، فالإنسان من جنسهم وأخ لهم ولا يجوز له أن يتعالى ويتكبر عليهم. وفيها صور من الكمال النفسى بالتوسط والاعتدال فى كل الأحوال، فى المشى وفى الحديث وفى غير ذلك من كل ما يحفظ عليه وقاره ويكمل شخصيته. فهى وصية جامعة دقيقة، من أجل ذلك كان لقمان حكيمًا، وكانت وصيته قرآنًا خالدًا يتلى على مر الدهور. ومن أراد أن يعرف تفصيل الآداب التى يربى عليها النشء فليرجع إلى كتب المسلمين أمثال الغزالي وابن سينا وابن مسكويه وغيرهم، ففيها آداب تصلح للكبار والصغار، وآداب يقتضيها عرف ذلك الزمان.

وقد أشار الغزالي فى كتابه «الإحياء» إلى نماذج من رياضة الصبيان، منها: عدم لبس الملابس التى توحى بالأنوثة والنعومة، ومقاطعة من يلبسونها والاجتهاد فى تعليم الصبى حكايات الأخيار ليغرس فى نفسه حبهم والاعتداء بهم، وعدم تعويده النوم فى الفراش الوثير حتى لا يألف النعومة، وأن يعوده الأخلاق الاجتماعية، بعدم الفخر على أقرانه بما يملكه والده أو بشىء من مطاعمه وملابسه، وأن يعف عما فى يد غيره من الأغنياء أو الفقراء كما يعوده الصدق وعدم الخلف، وأن يحسن الاستماع ولا يبدأ بالكلام إن كان معه من هو أكبر منه، وأن يصون لسانه عن اللغو والسب، ولا يخالط من يفعلون ذلك. وغير هذا كثير فى الكتب المشار إليها. وعمدة ذلك الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح.

والتربية العلمية تقوم على ما يقوى العقل وينمى المدارك من أنواع المعارف

المختلفة، سواء منها العلوم الدينية وغيرها من كل ما يوسع الأفق ويفيد الإنسان في نفسه وفي المحيط الذى يعيش فيه . وحصر هذه العلوم لا حاجة له، لأن البيئة والظروف لها حكمها فى اختيار بعض ما هو موجود منها، وفى خلق أنواع جديدة تمس الحاجة إليها .

والإسلام فتح باب العلم على مصراعيه . وحث على الحرص على كل معرفة طيبة تنتج آثاراً حميدة، وقد اجتهد الغزالي فى الإحياء<sup>(١)</sup> أن يحصر أنواع العلوم بتقسيمها إلى مجموعات، ليستطيع بالتصنيف أن يلم بها كلها . فذكر ألواناً كثيرة بالنص وألواناً أخرى بالعنوان الشامل . ولكنى أيسر عليك المهمة بذكر آيتين من القرآن الكريم تدرك منهما أن الله تعالى حث على جميع المعارف من طبيعة وكيمياء وفلك ونبات وحيوان وجيولوجيا ومعادن وطب وتاريخ واجتماع وفلسفة وكل ما يصل فى نهايته إلى إدراك سر الوجود وتعميق الإيمان بالله سبحانه الذى يجب أن يُخشى سلطانه بطاعته وامثال أوامره . قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿ [فاطر: ٢٧، ٢٨] .

وقد ذكر العلماء أن من التعليم ما هو فرض عين على كل إنسان، وهو تصحيح العقيدة ومعرفة المأمورات والمنهيات التى بها تصلح علاقته بربه وبالناس، ومنه ما هو فرض كفاية يقوم به بعض الناس لسد حاجة المجتمع، كالحرف والصناعات التى هى قوام أمور الدنيا .

وكان تعليم القرآن وأحكام الشريعة هو الغالب فى أيام النبى ﷺ لأنه مفتاح كل العلوم، أو هو الدستور الذى يسير على منهجه الناس فى حياتهم

(١) ج ١ ص ١٢ .

الجديدة، ولكن الدين لم يمنع - كما هو مرسوم في القرآن - من تعلم العلوم الأخرى بل حث عليها . وفتحت الكتاتيب لتعليم الخط والحساب ومبادئ العلوم . وقد أرسل سيدنا عمر كتاباً إلى الأمصار يقول فيه : علموا أولادكم السباحة والفروسية . وفي رواية : مروهم يثبوا على الخيل وثباً، ورووهم ما سار من المثل وحسّن من الشعر<sup>(١)</sup> .

وسياتى فى بيان أسلوب التربية التوصية بالبدء بالأهم من هذه العلوم والتدرج فى تعليمها حسب السن والاستعداد، وعدم الخوض فى التفاصيل إلا بعد التمكن من أصل الموضوع واستعداد العقل لتحمل الخلافات، والموازنة بين الآراء، وأكرر التنبيه إلى وجوب العناية بالتربية الدينية علماً وعملاً كالعناية بالثقافة العقلية والتربية الجسمية أو أشد، لأنها صمام الأمن لكل تربية . ومن المؤسف أن تكون الموسيقى والأشغال اليدوية فى مناهج التعليم فى بعض بلاد المسلمين مواد أساسية يهتم بها، وتكون العلوم الدينية فى وضع أدنى من هذا الاهتمام، كما يؤسف أن تدرس علوم نظرية بحتة أو تعطى لها عناية كبيرة فى الوقت الذى يحتاج فيه إلى التعليم العملى فى ميادين تحتمها الظروف . كذلك من العيب أن نشغل الناشئة ونشغل أنفسنا بمعارف عميقة واسعة عن الدول الأجنبية، ونهمل إهمالاً واضحاً تاريخ بلادنا وأمتنا وأمجادنا الأصيلة .

ومن الخير أن أتخف الأبناء بهذه الحصيلة العلمية الخلقية التى جناها أحد التلاميذ النجباء من تعلمه طوال ثلاث وثلاثين سنة . ذلك أن حاتم بن علوان الأصم المتوفى سنة ٢٣٧هـ وهو أحد أقطاب الصوفية، مكث يطلب العلم على أستاذه شقيق البلخى هذه المدة، ولما سأل فى نهايتها عن حصيلته العلمية قال له : ثمان مسائل لا غير، وهى :

**الأولى :** نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوباً، فهو مع محبوبه إلى القبر، فإذا وصل إلى القبر فارقه، فجعلت الحسنات محبوبى، فإذا دخلت القبر دخل محبوبى معى .

( ١ ) البيان والتبيين ج ٢ ص ٩٢ .

الثانية: نظرت في قول الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] فعلمت أن قوله سبحانه وتعالى هو الحق، فأجهدت نفسي على دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله .

والثالثة: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل من معه شيء له قيمة ومقدار رفعه وحفظه، ثم نظرت إلى قول الله عز وجل: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] فكلما وقع معى شيء له قيمة ومقدار وجهته إلى الله ليبقى عنده محفوظاً .

والرابعة: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع إلى المال وإلى الحسب والشرف والنسب، فنظرت فيها فإذا هي لا شيء، ثم نظرت إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فعملت في التقوى حتى أكون عند الله كريماً .

والخامسة: نظرت إلى هذا الخلق وهم يطعن بعضهم فى بعض ويلعن بعضهم بعضاً، وأصل هذا كله الحسد، ثم نظرت إلى قول الله عز وجل: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢] فتركت الحسد واجتنبت الخلق، وعلمت أن القسمة من عند الله سبحانه وتعالى فتركت عداوة الخلق .

والسادسة: نظرت إلى هذا الخلق يبغى بعضهم على بعض، ويقاتل بعضهم بعضاً، فرجعت إلى قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] فعاديته وحده، واجتهدت فى أخذ حذرى منه لأن الله تعالى شهيد عليه أنه عدو لى، فتركت عداوة الخلق غيره .

والسابعة: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذل فيها نفسه ويدخل فيما لا يحل له، ثم نظرت إلى قوله تعالى:

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦] فاشتغلت بما لله تعالى وتركت ما لي عنده.

والثامنة: نظرت إلى هذا الخلق فرأيتهم كلهم متوكلين على مخلوق، هذا على ضيعته، وهذا على تجارته، وهذا على صحة بدنه، وكل مخلوق متوكل على مخلوق مثله، فرجعت إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣] فتوكلت على الله عز وجل فهو حسبي<sup>(١)</sup>.

وليحذر المربي أبا أو أمًا أو معلماً أن يلحق النشء معلومات خطأ، أو تسليتهم بحكايات خرافية، وليبعد كل البعد عن القصص الغريب الذي يروع الطفل، أو يضلله ويشوه أفكاره، كما يجب أن تتنبه الأم على الخصوص إلى خطر الأغاني التي ترقص بها الطفل وتدللّه، فإن سمعه إذا تعودها حفظها، والمعلومات التي تحويها ترسخ في ذهنه ويصعب انتزاعها، وهو يتصرف على هديها إن عاجلاً وإن آجلاً، وخطر الإذاعات المسموعة والمرئية في هذا المجال كبير. فلنجتهد أن تكون الأغاني والأناشيد حاملة معاني الرجولة والبطولة والعفة والأمانة والإخلاص والوفاء وطاعة الوالدين وحب الوطن وسائر الأخلاق الحميدة للفتى والفتاة. وقد مر شيء من أغاني العرب عند تدليل أطفالهم في بحث المفاضلة بين الذكر والأنثى والوراثة.

كان الزبير يرقص ولده عروة ويقول:

أبيض من آل أبي عتيق مبارك من ولد الصديق  
ألدّه كـمـا ألد ريقى

وورد أن حليلة السعدية كانت ترقص محمداً ﷺ وهي تنشد:

يا رب إذ أعطيته فأبقه وأعله إلى العلاء وأرقه  
وادحض أباطيل العدا بحقه

(١) الإحياء ج ١ ص ٥٧.

كما كانت الشيماء بنت حليمة ترقصه وتقول:

هذا أخ لي لم تلده أُمِّي      وليس من نسل أبي وعمي  
فديته من مَخُولٍ مَعِي      فأعنه اللهم فيما تُنمي

وزاد بعضهم:

يا ربنا أبق لنا محمداً      حتى أراه يافعا وأمردا  
ثم أراه سيِّداً مسوِّداً  
واكبت أعاديته معاً والحسداً      وأعطه عزمًا يدوم أبداً<sup>(١)</sup>

\* \* \*

(١) الزرقاني على المواهب ج ١ ص ١٤٦.

## الفصل السادس

### فى مكان التربة

التربة فى شقيها العلمى والعملى، والثقافى والخلقى، يمكن أن تكون فى كل مكان، فى البيت والمدرسة والمسجد والطريق، فى الحل والترحال، وفى كل مكان، وكان النبى ﷺ حريصاً على خير أمتة، فدعاهم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً، فى البيت والمسجد والطريق والسوق والحضر والسفر، يريد بهذا أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه، وأن يبرىء ذمته من هذه المهمة. وقد أشهد أمتة فى حجة الوداع أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، ولعلك تعرف أنه كان راكباً ناقته ومردفاً خلفه عبد الله بن عباس، فالتفت إليه وقال «يا غلام ألا أعلمك كلمات؟» قال: بلى. قال «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف»<sup>(١)</sup>.

وكانت التربة فى أول ظهور الإسلام قاصرة على البيوت. ثم اتخذ النبى ﷺ دار الأرقم بن أبى الأرقم مركزاً يتلقى فيه أصحابه، يبلغهم الوحى ويستقبل الراغبين فى الإسلام، وكان الآباء يربون أولادهم فى بيوتهم تربة علمية خلقية إذا كانوا ذوى مقدرة تؤهلهم لذلك. وكان هذا الوضع ظاهراً فى عهد الصحابة والتابعين، أما فى العصور التى تلت ذلك فكانت التربة العلمية يقوم بها من لهم مقدرة علمية، أما غيرهم فكان الفقراء منهم يهملون تعليم أولادهم، وكان الأغنياء منهم إما غير مهتم بالعلم فلا يعنيه من أمره شيء، وإما مهتم فيحضر معلماً لأولاده يتولاهاهم فى بيته، ولم تكن هناك مدارس بالمعنى المعروف الآن، إنما

(١) رواه الترمذى وحسنه.

كانت المساجد هي الأمكنة المفضلة للتعليم العام، غير أن روادها كان أكثرهم من الكبار، وقلَّ أن يختلف إليها الأطفال. وقد يكون ذلك للتوصية بتجنبيهم المساجد حرصاً على نظافتها وعدم التشويش فيها. روى واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: « جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم، وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وسلَّ سيوفكم، واتخذوا على أبوابها المطاهر وجمروها في الجمع » رواه ابن ماجه والطبراني عن أبي الدرداء وأبي أمامة وواثلة، وإن كان هذا الحديث ضعيفاً كما قال العراقي وابن حجر، بل أورده ابن الجوزي في الموضوعات، وقال عبد الحق: لا أصل له كما في فيض القدير للمناوي على الجامع الصغير للسيوطي.

وكان بمسجد المدينة مجلس الإمام مالك المتوفى سنة ١٧٩هـ، وبمسجد البصرة مجلس الحسن البصرى المتوفى سنة ١١٠هـ، وكان لمسجد المنصور ببغداد وعمرو بن العاص بمصر مجالس لأفاضل العلماء، وكانت هناك زوايا يدرس فيها كبار العلماء.

وأول نوع عرف من المدارس هو الكتاتيب، وكان ذلك حوالى نهاية القرن الأول ومطلع القرن الثانى الهجرى، وكان بعضها ملحقاً بالمساجد، ومن أشهرها كتّاب أبى القاسم البلخى، وكان به نحو ثلاثة آلاف. وازداد عدد الكتاتيب والمعلمين فى القرن الثانى، ثم نشأت المدارس العامة فى القرن الخامس الهجرى حين افتتحت فى يوم السبت العاشر من ذى القعدة سنة ٤٥٩هـ أول مدرسة ببغداد من مجموعة المدارس التى أنشأها نظام الملك المتوفى سنة ٤٨٥هـ، ودرس فيها مشاهير العلماء، ومنهم الغزالي، كما أنشأ نور الدين بالشام، وصلاح الدين الأيوبي بمصر مدارس متعددة.

ونظام الملك هو الوزير قوام الدين نظام الملك الطوسى الحسن بن على الذى وزر للسلطان ألب أرسلان السلجوقى وولده. قال الذهبى فى تاريخ الإسلام: ليس نظام الملك أول من بنى المدارس، فقد كانت المدرسة البيهقية بنيسابور قبل

أن يولد نظام الملك، والمدرسة السعيدية بنيسابور أيضاً بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود عندما كان والياً على نيسابور، ومدرسة ثالثة بنيسابور بناها أبو سعيد إسماعيل بن علي بن المثني الاستراباذي الواعظ الصوفي شيخ الخطيب، ومدرسة رابعة بنيسابور بنيت لأبي إسحاق الشيرازي. لكن قال التاج السبكي في الطبقات الكبرى: يغلب على ظني أن نظام الملك هو أول من رتب في مدارسه المعاليم للطلبة. اهـ<sup>(١)</sup>.

ومع وجود الكتاتيب والمدارس كان التعليم موجوداً بقصور الحكام والعظماء على يد المؤدبين الذين سمعوا بذلك لعنايتهم برواية الأدب وتعليم الآداب والأخلاق الكريمة، وكان يشترك مع المؤدب الوالدان في وضع المنهج ومراقبة السلوك، كما كانت دور بعض العلماء مثابة للمتعلمين، كدار الغزالي ودار ابن سينا.

وكانت البوادي محط رحال كثير من عشاق الأدب العربي واللغة العربية الفصحى، وأرسل إليها العظماء أولادهم ليتربوا فيها، بعد أن أخذ اللحن يدب إلى ألسنتهم باختلاط العرب بغيرهم، وبعد أن غيرت المدنية أخلاق العرب الأصيلة. التي ما زال لها قوتها في البادية. وكان يزيد بن معاوية مبعوث أبيه في الصحراء لتعلم اللغة وتذوق فنون الأدب. ولما كان الوليد بن عبد الملك قد آثر الحاضرة على البادية، ولم يذهب ليتعلم فيها تسرب إليه اللحن، وفي ذلك يقول أبوه عبد الملك: أضربنا حيناً للوليد، فلم نرسله إلى البادية<sup>(٢)</sup>. كما تلقى فيها فنون الأدب كثير ممن اشتهروا بالعلم، كالخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٦٠هـ وبشار بن برد المتوفى سنة ١٦٧هـ والكسائي المتوفى سنة ١٨٢هـ والشافعي المتوفى سنة ٢٠٤هـ والرياشي المتوفى سنة ٢٥٧هـ.

ولما ظهرت الكتب وكثرت بدأ البعض يتعلم فيها دون حاجة إلى المعلم، وكان ذلك في مطلع الدولة العباسية. وكان بائعو الكتب على قدر من الثقافة،

(١) إعلام الساجد بأحكام المساجد للزركشي. (٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٣٩.

غير أن الكثيرين من العلماء لا يشجعون الأخذ مباشرة من الكتب والاستغناء بها عن المعلم، خصوصاً في التربية الخلقية، التي تتدخل فيها شخصية المربي إلى حد كبير، ومن قولهم في ذلك: من أعظم البلية تشيخ الصحيفة، أى التعلم منها كأنها شيخ. وقولهم: من لا شيخ له فلا دين له، ومن لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان....

وبالجملة فإن التربية لا تقتصر على مكان معين. وتعلُّل المقصرين بعدم تهيئة أمكنتها يدل على أنهم قوم اهتموا بالمظاهر والقشور، وكم نبغ في التاريخ من عظماء ما اختلفوا إلى مدارس راقية مهيأة، تلقفوا العلم وما ضرهم من أى وعاء خرج، وفي أى مكان أخذ.

\* \* \*

## الفصل السابع

### في أسلوب التربية

يولد الأولاد وعندهم استعدادات طيبة وعوامل مشتركة تمكن الاستفادة منها في وضع قواعد عامة للتربية، يعيش عليها جميعهم أو أكثرهم. فهم يحمدون العدل ويمقتون الظلم، وفيهم غريزة حب الاستطلاع، وعندهم ميل إلى الحياة الجماعية وخوف من القوى الطبيعية، ومن مثل هذه المدركات ينشأ كل أمر عظيم أو حسن، وظهر ذلك بشكل أوضح في الحضارة والتقدم. والتربية في الحقيقة هي حمل نفوس الأطفال على أن تخرج من أكمائها في ضوء هذه المجالات الواسعة للحضارة الإنسانية، ودعوة كل الناشئين إلى الاشتراك في هذه الحركة، وهذا هو الواجب الإيجابي للتربية والتعليم في الجانب العلمي، أما الواجب السلبي فهو مقاومة الرذائل الناتجة عن الغرائز الأخرى والتي يرجع كثير منها إلى الأنانية وحب الذات، وهذا الواجب في صورته السلبية لا يقل شأنًا عن الواجب في صورته الإيجابية، ولا بد أن تستسلم الغرائز الشريرة إلى الغرائز الخيرة.

وعلى ضوء هذه المقدمة يمكن أن توضع قواعد عامة لأساليب التربية، ولا يمكن هنا الإتيان عليها كلها أو أكثرها، ولكنني سأعرض نماذج منها وأؤيدها ما استطعت بالنصوص الدينية أو أقوال علماء الإسلام.

إن أسلوب التربية في حقيقته مزيج من واجبات المربي ومادة التربية والطريقة التي تكون بها، أو الوسيلة الناقلة للمادة من المربي، وقد أشرنا إلى شيء من واجبات المربي ومادة التربية في العناوين السابقة، وإليك بعض مظاهر هذا الأسلوب الذي يرجى من ورائه النجاح في التربية.

أولاً: من تمام واجبات المربي أن يكون مخلصاً في تربيته. وإخلاص الوالدين يحمل عليه غالباً حب طبيعى للولد، إلى جانب رجاء المثوبة من الله

وإبراء الذمة من الواجب عليهم . وأما إخلاص المربي الآخر فيدفع إليه الخوف من الله إذا قصر في عمله، ورجاء المثوبة على الهداية إلى الخير، وهو في الواقع والدُّ رُوحى لمن يتولى تربيته . وقد ورد في ذلك قول النبي ﷺ «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده» رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان عن أبي هريرة، ورواه أبو يعلى عن عائشة، وفي سنده مصعب بن ثابت، وثقه ابن حبان وضعفه جماعة<sup>(١)</sup> . وقد قال النبي ﷺ «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» رواه البيهقي عن عائشة، وهو حديث حسن، وفي رواية له عن كليب «إن الله يحب من العامل إذا عمل أن يحسن» وهو حسن<sup>(٢)</sup> .

وللإخلاص مظاهر، منها :

( أ ) ألا يكتم العلم عمن يطلبه، ولا يبخل به على من يستحقه ، وقد تقدم ذكر كتمان العلم، ويقول أبو الحسن البصرى الماوردى : إن البخل به لؤم وظلم، والمنع منه حسد وإثم، وكيف يسوغ لهم البخل بما يمنحوه جوداً من غير بخل، وأوتوه عفواً من غير بذل، أم كيف يجوز لهم الشح بما إن بذلوه زاد ونما، وإن كتموه تناقص ووهى، ولو استنَّ بذلك من تقدمهم لما وصل العلم إليهم، فليسمع هذا من يبخلون على التلاميذ ولا يبذلون إلا بأجر إضافى أو دروس خاصة .

( ب ) أن يحرص على تعليم الناشئ كل ما يفيده حتى لو لم يتنبه إليه ولم يسأله، غير أن العلم إذا كان يضر بالمتعلم، أو لا تتحملة طاقته، فحجزه عنه أحكم، وقد قال على كرم الله وجهه فى نهج البلاغة<sup>(٣)</sup> مشيراً إلى صدره : ها، إن ههنا لعلماً جماً لو أصبت له حملة، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ [النساء : ٥] تنبيهاً على أن حفظ العلم عمن يفسده ويضره أولى، وليس الظلم فى إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم فى منع

(١) المطالب العالية ج ١ ص ٣٧٩ . (٢) الألبانى على الجامع الصغير .

(٣) ج ٢ ص ١٧٢ .

المستحق، والعلم كالدر لا ينبغي أن ينثر على من لا يعرف قيمته، كما يقول القائل (١):

سأكتم علمي عن ذوى الجهل طاقتي ولا أنثر الدر النفيس على الغنم  
فمن منح الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وقد نهى ابن عباس عمر عن الكلام وسط غوغاء الحجاج، وانتظر حتى خلاص بأهل الفقه في المدينة، ففي الصحيحين أن ابن عباس قال لعمر بن الخطاب: إن الموسم يجمع الرعاع والغوغاء، فأمهل حتى تقدم المدينة فتخلص بأهل الفقه، فقدمنا المدينة فقبل عمر مشورة ابن عباس فلم يتكلم بذلك حتى قدم المدينة، قال ابن الجوزي: وفي هذا تنبيه على ألا يودع العلم عند غير أهله، ولا يحدث لقليل الفهم ما لا يحتمله فهمه. والرعاع هم السفلة والغوغاء ونحو ذلك، وأصل الغوغاء صغار الجراد (٢).

(ج) أن يجتهد في توضيح المسألة وتوصيلها إليه بكل الطرق الممكنة، وبوسائل الإيضاح المعروفة، حتى ترسخ في ذهنه وتنطبع في قلبه، ومن ذلك ضرب الأمثال ولفت الأنظار وجذب الانتباه، بالأسئلة والإشارات والخط وغير ذلك. وقد جاء في القرآن الكريم من هذه الوسائل كثير، استعملها النبي ﷺ في تعليم أمته. وتمثيله بركاب السفينة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالفرار من المتهاافت على النار في اندفاع الناس إلى المعاصي والمهالك، وبالدار الحسنة إلا موضع لبنة فيها في ختام الرسالات، وكذلك خطه على الأرض خطأ مستقيماً وحوله خطوط مائلة، مفسراً بها قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وغير ذلك كثير يدل على حرصه على توضيح المسائل مستعيناً بالوسائل المتعددة، وحصر هذه الأمثال يطول.

(١) نسبها السفاريني إلى الشافعي: غذاء الألباب ج ١ ص ٤٤.

(٢) المصدر السابق ص ٤٥.

ومن وسائل الإيضاح للأطفال بالذات أسلوب القصص، وفي القرآن الكريم والحديث النبوي كثير من القصص الحق: وقد تنتحل شخصيات تنسب إليها أقوال أو أفعال في قصة من القصص، بل قد تنسب إلى حيوانات، كما في كتاب كليلة ودمنة، والقصص الشعرية التي وضعها لافونتين الفرنسى، وهذه النسبة وإن كانت لونها من الكذب إلا أنه لا ضرر فيه، والقصد منه حميد، فلا بأس به، وقد أورد الطرطوشى فى كتابه «سراج الملوك» حكاية بومتين خطبت إحداهما بنت الأخرى لابنها على صداق قدره مائة ضيعة خراب ستدفعها إذا دام واليهم عليهم، وكان ذلك بالموصل، وكانت هذه الحكاية فى مسامرة نديم لعبد الملك بن مروان. ففطن لها وجلس للمظالم وتفقد الولاة<sup>(١)</sup>.

( د ) ومن الإخلاص عدم ضياع وقت مخصص للتربية دون عمل يفيد منه الناشئ، وقد مرَّ بك وصية الرشيد للأحمر مؤدب ولده التى جاء فيها: ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه. اهـ. ويكون الضياع بالانشغال عن التربية بعمل آخر كأكل أو قراءة صحف أو حديث . . . . أو باستعمال هذا الوقت لتعليم شىء آخر يطغى على التربية الدينية والخلقية المخصص لها هذا الوقت، كما يفعله كثير من المشتغلين بالتعليم.

( هـ ) ومن الإخلاص فى التربية أن تلقى إليه المعلومات صحيحة، فإن أخطأ بادر إلى تصحيحها. جاءت امرأة إلى أبى الحسن الزيات فاستفتته، فأفتاها ثم مضت، وبعد قليل تغير وجهه فأسرع خلفها حافياً حتى أدركها وصحح لها الفتوى، ولما سأله أصحابه وأخبرهم قالوا له: لو أمرتنا لفعلنا ذلك، قال: ما هى فى ذمة أحدكم، فلو فعلت ذلك فقد يتباطأ أحدكم فتفوته المرأة ولا يعلم وجهتها<sup>(٢)</sup>.

( و ) ومن الإخلاص فى التربية مباشرته لها بنفسه، فلا يسلمها الوالدان إلى الخدم، ولا يكل المعلم إلى أحد التلاميذ تعليم الأطفال إيثارة للراحة وتهاوناً

( ١ ) حياة الحيوان للدميرى - بومة. ( ٢ ) تاريخ التربية ص ٣٦.

فى الواجب، أما إن كان ذلك لتمرينه على التعليم واختبار مدى قدرته فلا بأس .  
وذلك يكون تحت إشرافه وتوجيهه، لا مستقلاً هو بها .

( ز ) ومن الإخلاص المبادرة بالتربية، وعدم تفويت الفرصة على الطفل،  
فمن وصايا الحكماء: بادروا بتعليم الأطفال قبل تراكم الأشغال . وكان من آثار  
المبادرة بالتعلم وجود شخصيات عظيمة نابغة وما زالت فى سن مبكرة، لقد أتم  
سهل بن عبد الله التستري حفظ القرآن وعمره ست أو سبع سنوات، وأكمل تاج  
الدين الكندى القراءات العشر وله عشرة أعوام، وكان الشافعى قد حفظ القرآن  
وهو ابن سبع سنين، وحفظ الموطأ وهو ابن إحدى عشرة سنة، وتصدر للفتوى  
وهو ابن خمس عشرة سنة . وكان سفیان بن عيينة إذا جاءه شىء من الفتيا أو  
التفسير التفت إلى الشافعى وقال: سلوا هذا الغلام، ولما بلغ ابن سينا عشر سنين  
كان قد أتقن علم القرآن والأدب، وحفظ أشياء من أصول الدين وحساب الهند  
والجبر والمقابلة كما يقول ابن خلكان . وكذلك يمرنون على العبادة وهم صغار  
ليشربوا وقد ألفوها، فيكون تكليفهم سهلاً، وفى الحديث الشريف «مروا  
أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا  
بينهم فى المضاجع»<sup>(١)</sup> . وكذلك يمرنون على الصوم وهم صغار، وكان المسلمون  
يلهون أولادهم بكرات الصوف حتى يحين وقت الإفطار، كما تقدم فى الفصل  
الخامس .

( ح ) ومن الإخلاص فى التربية تمكين الطالب من مواصلة التعليم ليشبع  
رغبته ويتسع أفقه وتزداد خبرته ما دام عنده استعداد، وما دام الوالد عنده قدرة  
على الإنفاق عليه .

( ط ) كذلك من الإخلاص تركه يختار نوع العلم الذى يرغبه ويناسب  
استعداده، ولا يجوز قسره على طريق يرغب عنه ليحقق بذلك رغبة والده  
ومربيه، فذلك له عواقب وخيمة، وقد يخفق الولد فى هذا الطريق فتتصب  
اللائمة على من اختاره له، ويضيع تعب سدى .

( ١ ) رواه أبو داود بإسناد حسن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

(ى) ومن الإخلاص عدم التقصير فى الإنفاق عليه، وتوفيته مطالبه من الكتب والأدوات والأجهزة وغيرها مما يساعد على التعلم ويشرح صدره للاستزادة من المعرفة، وليس السخاء فى هذه الناحية ضائعاً ما دام معقولاً، فيسيجنى الولد والوالد من وراء ذلك ربحاً أدبياً ومالياً لا يوزن به ما أنفقه فى سبيله .

وأؤكد على الحكمة فى الإنفاق، فلا يعطى الطالب كل ما يطلب، فأنّ تعوده ذلك يفقده الشعور بأهمية المال، ويوحى إليه بأن الحصول عليه سهل ميسر، وإذا كان هذا ملاحظاً لمن يرقبون سلوك الأولاد، فإن المخلصين نبهوا إليه . مثل «هنرى لينيك» نائب رئيس المشتغلين بالعلوم السيكولوجية فى أمريكا فى كتابه «الطريق إلى الأمن الشخصى»<sup>(١)</sup> .

ثانياً : من تمام واجبات المربي أيضاً الصبر والتحمل . وهذا أمر لازم لكل من يقوم بهذه المهمة، وهو أشد لزوماً للوالدين نحو الطفل، خصوصاً فى السنوات الأولى، فأن معاملة الأطفال فى هذه السن صعبة . لأنهم يتصرفون بغرائزهم وشهواتهم أكثر من تصرفهم بعقولهم التى لم تنضج بعد، ولا تستطيع التفريق بين الخطأ والصواب والحسن والقبيح، وهم فى مرحلة لا تحكم عليهم قوانين، حيث لم يبلغوا سن التكليف، فهم إلى الانطلاق والتحرر أميل، وشعورهم بعطف آبائهم وأمهاتهم يغريهم إلى حد كبير بالتهاون فى التزام التوجيهات .

والمربي، وهو فى سنه المتقدمة نوعاً، نسى أو تناسى مرح الطفولة وانطلاقها، ولم يعد، وقد خضع لقيود العرف وأحكام القانون، يطبق تصرفات الأطفال العابثة، لأنه لا يقدر ظروفها تمام التقدير، ومن أجل هذا كان ضبط النفس والتحمل من أهم ما يلزم للمربي .

ومن مظاهر هذه الصفة ما يأتى :

( أ ) عدم تبرم الوالد بأولاده أو هجر المنزل فراراً من مضايقاتهم، فإن

(١) مجلة رابطة الإصلاح الاجتماعى، أكتوبر ١٩٥١ .

وجوده فى وسطهم يعوده - كرهاً - ضبط الأعصاب وهدوء الانفعالات، وفيه تأليف لقلوبهم وتوكيد لصلته بهم، إلى جانب تخفيف الحمل عن الزوجة الحائرة بين الخدمة ومواجهة هذه المضايقات، والتفاهم معها على أقوم الطرق لعلاج الموقف إذ ذاك .

(ب) عدم الإسراع بالدعاء عليهم تنفيساً عن غيظ لا يُحبُّ أن يفجره بضرب قد تكون له خطورته وقت هذا الانفعال، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك فقال: « لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم ولا تدعوا على أموالكم - رقيق وحيوانات وغيرها - لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها فيستجيب لكم » (١) وقد قال ذلك عندما سمع رجلاً يلعن دابة قد استعصت عليه . وجاء رجل إلى عبد الله بن المبارك فشكا إليه بعض ولده، فقال: هل دعوت عليه؟ قال: نعم، قال: أنت أفسدته .

وإذا كان النبي ﷺ نهى عن الدعاء عليهم فهو ينهى عن تمنى موتهم كما نهى عن تمنى موت نفسه لضر نزل به، ففي الحديث « لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه، فإن كان لا بد فاعلاً فليقل: اللهم أحيى ما كانت الحياة خيراً لى، وتوفى إذا كانت الوفاة خيراً لى » (٢) .

ولا ينبغي أن يقول كما قال الأعرابى :

الناس يُعْطُونَ أموالاً ميسرة      وأنت أعطيتنى يا رب صبيانا  
خذهم إليك فكلُّ صار فى خلقٍ      وأنت أعطيتته يا رب عريانا  
قد كنت كلفتنى فى أمهم ثمنا      فخذهم عاجلاً يا رب مجاناً (٣)

هذا، وقد يصعب على الإنسان أحياناً ضبط أعصابه إلى الحد الأقصى فيلجأ إلى التنفيس عن نفسه، والطبيعة البشرية تقضى بذلك، غير أن هذا لا ينبغي أن يصل إلى حد الدعاء على الأولاد وتمنى التخلص منهم، فذلك له أثره السيء

(٢) رواه البخارى ومسلم عن أنس .

(١) رواه مسلم عن جابر .

(٣) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٢٠٥ .

فى نفوسهم، وقد رخص الدين فى بعض ألفاظ اعتادها الناس، وسلم بها العرف لا يقصد بها تبرم بقدر ما يقصد بها من توجيه وتأديب. حدث أن عبد الله بن بسر المازنى أرسلته أمه إلى رسول الله ﷺ بقطف من عنب، فأكل منه قبل أن يبلغه إليه، فلما رآه النبى ﷺ على هذه الحال أخذ بأذنه وقال «يا غدر» يعنى يا غادر. رواه ابن السنى<sup>(١)</sup> وفى البخارى ومسلم أن أبا بكر الصديق ضيف جماعة فأجلسهم فى منزله ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ فتأخر عنهم، فلما رجع قال: أعشيتموهم؟ قالوا: لا، فأقبل على ابنه عبد الرحمن فقال: يا غنثر، فجدع وسب، أى دعا عليه بقطع أنفه، والغنثر هو اللثيم<sup>(٢)</sup>.

(ج) التحمل يقتضى عدم اليأس من صلاح السلوك أو النجاح فى الامتحان أو التوفيق فى المسعى، فالظروف تتغير، والمستقبل فيه مفاجآت كثيرة، وكم من ولد بدأ حياته شقياً بليداً، فانتهى صالحاً متفوقاً، والأمثلة التاريخية كثيرة.

وحتى يتعود المربى التحمل نصح العلماء بالأى زاول المعلم عمله عندما تكون أعصابه متوترة أو نفسه مضطربة، تحت تأثير جوع أو مرض أو حزن مثلاً، كما يقول ابن جماعة فى كتابه «تذكرة السامع والمتكلم»<sup>(٣)</sup>.

هذا، وقد قال العلماء: يراد للعالم - بوجه عام - عشرة أشياء: الخشية والنصيحة والشفقة والاحتمال والصبر والحلم والتواضع والعفة عن أموال الناس ودوام النظر فى الكتب وعدم الحجاب. وفيما مضى وفيما سيأتى توضيح لهذه الأمور.

ثالثاً: ومما يلزم المربى خلق الرحمة، وهى رقة فى القلب تدفع إلى عمل الخير نحو الغير، وهذه الرحمة فى الوالدين نحو الأولاد فطرية، لا يشذ عنها إلا فاسد الطبع أو من وقع تحت تأثيرات شديدة. لقد مدح النبى ﷺ بها نساء

(١، ٢) الأذكار للبعوى ص ٢٨٦، ٢٨٧. (٣) تاريخ التربية ص ٢٤٤.

قريش فقبال: «نساء قريش خير نساء ركن الإبل، أحناء على طفل وأرعاه على زوج في ذات يده»<sup>(١)</sup> ولما اختصمت امرأتان في طفل وقضى سليمان بينهما بشقه نصفين صرخت الأم الحقيقية وتنازلت عن نصيبها فيه للأخرى، فعرف أنها أمه وأعطاه لها كما رواه البخارى، ذلك لأن الرحمة فطرية في الوالدين، فالولد قطعة منهما، والإنسان لا يحب أن تكون هناك قسوة على بعض أطرافه فكيف بأعزها وخلاصتها؟

والرحمة مطلوبة في التربية سواء أكانت لولده أم لغير ولده نظراً لصغر سن الطفل، وحادثة الصبى، وعدم تقديره للمسئولية تقدير الكبير لها. وللرحمة مظهران، أحدهما سلبي والآخر إيجابي، ومن السلبي الصبر والتحمل على ما مر بيانه، ومن الإيجابي ما يأتى:

( أ ) تقبيل الوالدين للولد وهو مظهر طبيعى يشاهد فى كل الأسر وجميع الأوساط وكل الأجيال، وإن كانت له احتياطات صحية تنبغى مراعاتها، كأن تكون القبلة على الخد أو الجبين أو اليد مثلاً، بعيدة عن الفم منعا للعدوى إن كان المقبل حاملاً لسببها، والنبي ﷺ كان يقبل أولاده ومن تحت رعايته. روى البخارى ومسلم عن أنس: كان النبي ﷺ أرحم الناس بالعيال، وكان له ابن مسترضع فى ناحية المدينة، وكان ظفره قيناً، وكنا نأتيه وقد دخن البيت بإذخر، فيقبله ويشمه<sup>(٢)</sup>.

وقد رآه الأقرع بن حابس يقبل الحسن فقال: إن لى عشرة من الولد ما قبلت أحداً منهم، فقال له النبي «من لا يرحم لا يرحم» رواه البخارى عن أبى هريرة، وفى رواية له عن عائشة أنه قال لمن تعجب من تقبيله الصبيان «أو أملك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟»<sup>(٣)</sup> وقبّل النبي ﷺ فاطمة وعلياً وغطاهما بخميصته كما فى المسند من حديث أم سلمة. واستعمل عمر رجلاً من بنى أسد على

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة. (٢) الزرقانى على المواهب - إبراهيم بن النبى .

(٣) رياض الصالحين ١١٢ .

عمل . فجاء يأخذ عنده فأتى عمر ببعض ولده فقبله، فقال الرجل : انقبل هذا يا أمير المؤمنين؟ والله ما قبلت ولدًا قط، فقال عمر: والله أنت بالناس لأقل رحمة . هات عهدنا لا تعمل لى عملاً ابداً<sup>(١)</sup> .

ب - تدليل الطفل بأنواع التدليل المختلفة المقبولة، لإيناسه وربطه قلبه به، ولا يأنف الكبير أن يتنزل إلى درجة ملاعبة الأطفال ليكون معهم بقلبه وعواطفه وتصرفاته بعض الزمن على الأقل، ففي الحديث « من كان له صبي فليتصاب له » رواه معاوية بن أبي سفيان عندما دخل عليه جبلة بن سحيم وهو فى الخلافة، فرأى فى عنقه حبلاً يقوده به صبي، فلما استنكر ذلك قال له معاوية: يالكعُ اسكت، فأنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من كان له صبي فليتصاب له » أخرجه ابن أبي الدنيا وابن عساكر، وقال غريب جداً<sup>(٢)</sup> .

وكان النبى ﷺ يدل الحسن والحسين وأسامة بن زيد، فعن أسامة قال: كان رسول الله يأخذنى فيقعدى على فخذه ويقعد الحسن على الأخرى، ثم يضمهما ثم يقول « اللهم ارحمهما فأنى أحبهما » رواه البخارى . ويشرح الشرفاوى على الزبيدى<sup>(٣)</sup> هذا الحديث ويذكر أن أسامة كان أسنً من الحسن، فعمره عند وفاة النبى كان نحو عشرين سنة، وعمر الحسن نحو ثمان سنوات . ويجيب على ذلك بأنه قد يكون النبى أقعد أسامة على فخذه لنحو مرض أصاب فمرضه بنفسه، أو أن إقعادهما ليس فى وقت واحد، أو عبّر عن إقعاذه بحذاء فخذه لينظر فى مرضه بقوله: فيقعدى على فخذه، مبالغة فى شدة قربه منه .

وفى إغاثة اللفهان لابن القيم<sup>(٤)</sup> قال شداد بن الهاد عن أبيه: خرج علينا رسول الله ﷺ وهو حامل الحسن أو الحسين فوضعه ثم كبر للصلاة، فصلى فسجد بين ظهرائى صلاته سجدة أطالها، فلما قضى الصلاة قال « إن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله » رواه أحمد والنسائى، وفى رواية عنه: بينما رسول الله يصلى

(١) سيرة عمر لابن الجوزى ص ٨٥ .

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٣٥ .

(٣) ص ٨٢ .

(٤) ج ٣ ص ٣١٢ .

بالناس إذ جاء الحسين فركب عنقه وهو ساجد فأطال السجود بالناس حتى ظنوا أنه حدث أمر، فلما قضى صلاته قالوا: قد أطلت السجود يا رسول الله حتى ظننا أنه قد حدث أمر، فقال «إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته» رواه النسائي والحاكم وصححه على شرط الشيخين<sup>(١)</sup>.

وأخرج ابن سعد عن عبد الله بن الزبير أنه رأى الحسن يجيء والنبي ساجد فيركب رقبته، أو قال ظهره، فما ينزله حتى يكون هو الذي ينزل، ولقد رأيته وهو راكع فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر<sup>(٢)</sup>. وقد مر أنه حمل الحسن والحسين ووضعهما بجانبه على المنبر. وروى أحمد بإسناد صحيح عن عائشة أن أسامة عثر بعثة الباب فدَمِيَ. فجعل النبي يَمَصُّه ويقول «لو كان أسامة جارية لخليتها ولكسوتها حتى أنفقها» ورواه ابن سعد في الطبقات عن أبي السفر مرسلًا وهو صحيح ورواه ابن سعد أيضًا موصولًا. وأخرج الشيخان عن البراء قال: سمعت رسول الله ﷺ والحسن بن علي على عاتقه، وهو يقول «اللهم إني أحبه فأحبه» وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال: أقبل النبي ﷺ وقد حمل الحسن على رقبته فلقيه رجل فقال: نعم المركب ركبت يا غلام، فقال له رسول الله «ونعم الراكب هو»<sup>(٣)</sup>. وأخرج ابن سعد عن أبي سلمة عبد الرحمن: كان رسول الله يدلُّع لسانه للحسن بن علي، فإذا رأى الصبي حمرة اللسان يَهَشُّ إليه<sup>(٤)</sup>. وفي رواية الحافظ السلفي عن أبي هريرة: كان النبي ﷺ يفتح فم الحسن ثم يدخل فمه في فمه ويقول «اللهم إني أحبه وأحب من يحبه»<sup>(٥)</sup>. وفي صحيح مسلم<sup>(٦)</sup> أن النبي ﷺ كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله، وكان إذا قام حملها، وإذا سجد وضعها. رواه عن أبي قتادة.

تنبيه: تحدث الفقهاء عن حكم حمل الصبي في الصلاة فقالوا: إنه جائز

(٢) تاريخ السيوطي ص ١٢٧.

(١) الإحياء ج ٢ ص ١٩٤.

(٣) (٤) تاريخ السيوطي ص ١٢٧.

(٥) الصبان على هامش مشارق الأنوار ص ١٦٨.

(٦) ج ٥ ص ٣١.

ولو لم يعلم حال ثيابه، بدليل ما حدث عن النبي ﷺ مع أولاده، كما قالوا: إن ريق الصبي ولعابه طاهران، لأن البلوى تعم بهما، أو نجسان نجاسة معفوا عنها للمشقة في التحرز والتطهير، فقد كان النبي ﷺ يُصْغِي الإِنَاءَ لِلهَرَّةِ حتى تشرب، ثم يتوضأ بفضلها مع علمه بأكلها الفأرة، واحتمال ورودها الماء الكثير في المدينة بعيد. فقيل: إن الريق مطهر لfمها، وهو مطهر لfم الطفل للحاجة، وهو أولى من التطهر بالحجر في الاستنجاء، والتراب لأسفل الخف في بعض المذاهب، ومن الشمس للخل، ومن الخرقة للسيف والمرأة عند من يقول بذلك، وكان الصحابة يمسحون سيوفهم ويصلون فيها، ولو غسلت لصدئت وذهبت نفعها، اهد من تحفة الودود.

والحق أن هذه الملاطفة تهب الطفل دفعا وحنانا يظهر أثرهما على صحته، وتعلقه بوالديه ومحبته لهما. يتحدث الأحنف بن قيس عن ذلك لما سأله معاوية رأيه في الولد - وكان يزيد ابنه حاضرا - فيقول: ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة وسماء ظليلة، وبهم نصول على كل جليلة، فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، بمنحوك ودّهم ويحبوك جهدهم، ولا تكن عليهم ثقلاً ثقيلاً فيملوا حياتك ويحبوا وفاتك، ويكرهوا قربك<sup>(١)</sup>.

ويجرنا هذا إلى أن نتحدث عن رأى المرابين في الأخذ بإحدى الطريقتين، اللين أو الشدة:

( أ . ) فقد اشتط جماعة وأفرطوا في استعمال سياسة اللين والرافة والحنان، فضيعوا أولادهم، كما ضيع عبد الملك بن مروان ابنه الوليد، فخاف عليه حياة البداوة وقسوتها فلم يرسله إليها ليتعلم اللغة العربية الفصحى، فتسرب اللحن إلى لسانه كما تقدم ذكره. والطريق المفروش كله بالورد لا يوصل إلى المجد أبداً. وقد دعا كثير من الكتاب إلى سياسة اللين والحرية في تربية الأطفال كمساعد على استقلال الشخصية. ولكن النتيجة كانت سيئة للغاية، حيث نشأ جيل

( ١ ) العقد الفريد ج ١ ص ١٩٦ .

منقاد لأهوائه المتقلبة ونزعاته الجامحة، وهذا أقسى أنواع العبودية للغرائز والأهواء، تتنافى مع الحرية التي اتخذوها وسيلة، كما أن هذه السياسة لا تساعد أبداً على وجود آداب مشتركة يعيش عليها الناس، ولا على وجود أشخاص ذوي أخلاق قوية يقاومون شهواتهم ويروضونها ليحيوا حياة طيبة. وقد ضج علماء أمريكا من هذه السياسة، وكانت هي من أوائل حاملي لواء الحرية وتربية النشء عليها.

جاء في أهرام ٢٩/٨/١٩٦١ أن إخصائي التربية في أمريكا نادمون على الحرية التي وهبها لأبناء هذا الجيل، فكانت سبباً في الانحلال. وقد اكتشفوا أن البلاد التي ربت أولادها على الشدة هي التي يخرج منها الشباب الناجح المستقيم، ولذلك هم ينادون الآن بالاعتدال في منح هذه الحرية فلا ينشأ الأولاد بطريقة بوهيمية، بل لا بد من معاقبتهم ليعرفوا الخطأ من الصواب ويحرصوا على الخير، ويتخاشوا الشر.

والسير «باسيل هنريك» رئيس محكمة الأحداث بلندن يقرر أن سبب تدهور الأخلاق وكثرة الجرائم بين الأحداث يعود إلى نظريات فجأة من علم النفس والتربية، وإلى أن الوالدين أعطوا الصغار حرية كاملة لم يعرفوا كيف يستعملونها. ثم يضيف إلى ذلك قوله بالحرف الواحد: إن فلسفة الأحداث اليوم هي: إنني أرى... وأريد... وأخذ... ويضاف إليها: دعنى أستمتع ما استطعت وكلمما كان ذلك في مقدورى. وقال الأديب الأمريكى الدكتور «فوردن» صاحب كتاب «محك الأخلاق»: لقد أعطى هذا الجيل حرية لم ينل مثلها جيل فى التاريخ، أعطيت له وهو صغير فأساء استعمالها، تعاطى الشبان والشابات الخمر بزهو وافتخار، فأخذت حياتهم تتراقص مع الرياح، لقد تركت النبتة الطرية دون ركائز فتمت عوجاء، وما الركائز فى نظرى سوى مراقبة دقيقة وتوجيه لطيف، إن فشلا فعصاً تحمل القسوة المحببة المنبثقة من قلوب تقصد الخير لا الانتقام والتشفى<sup>(١)</sup>.

(١) مجلة العربى عدد أكتوبر ١٩٦٨ ص ٥٦.

( ب ) وأهمل جماعة سياسة اللين واشتطوا في استعمال القسوة والخشونة، فضيعوا أولادهم أيضاً، ذلك أن سياسة الكبت والحرمان تجعل الطفل يتنفس عند كبره واستقلاله بالقسوة والشدة، كردُّ فعل لنشأته الأولى، فيشقى في حياته ويشقى من معه. وسياسة الشدة تحمل على الاحتيال للتخلص من قيودها المرهقة، واعتقاد أن الغاية تبرر الوسيلة، وقد وضع ابن خلدون هذا المعنى في مقدمته<sup>(١)</sup> وقرر أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم. وهذه السياسة كانت طابع التربية في القرون الوسطى الغالبة على الأمم القديمة، وكانت وما تزال مسيطرة على عقول الآباء في كثير من البلاد الشرقية والعربية، على تفاوت فيما بينها تبعاً لشدة الغزو الثقافي والخلقي الوافد من الغرب بنظرياته الجديدة.

يصف « شاتو بريان » هذه السياسة التي كانت سائدة في فرنسا حتى قبل ثورة ١٧٨٩ المشهورة فيقول: كنت أنا وأمي وأختي ننقلب في حضرة والدنا إلى تماثيل لا تتحرك، وما كنا نرجع إلى حالتنا الطبيعية إلا بعد أن يترك الغرفة، كما يصف المؤرخ الإنجليزي « رايت » هذه السياسة في بلاده في القرن الخامس عشر فيقول: إنها كانت إرهاقاً محضاً حتى في الأسر الكبيرة، فقد كانت سيطرة الآباء بالغة حد الإفراط، أما في القرن السابع عشر فقد كان من واجبات الأبناء لأبويهم أن يقفوا على أرجلهم أو يجثوا على ركبهم في صمت مطبق ولا يجلسوا حتى يؤمروا<sup>(٢)</sup>.

وخير طريقة عملية للتربية هي سياسة اللين والرحمة في السنين الأولى لحياة الطفل، حتى إذا بدأ يعقل ويدرك أثر معاملة الوالدين تبدأ سياسة جديدة هي مزيج من اللين والشدة، ولذلك ليعدَّ إعداداً كاملاً لمواجهة الحياة بحلوهها ومرها ونعيمها وشقائها، ويتذوق ذلك من الصغر حتى لا يفاجأ بها في الكبر. وهذه الطريقة هي الوسط، وخير الأمور أوسطها.

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما      فليقس أحيانا على من يرحم

(٢) مجلة الأزهر مجلد ٥ ص ١٩٩.

(١) ص ٣٩٩.

والنبي ﷺ الذي مرت بك معاملته الرحيمة لأولاده كان يعاملهم ببعض الشدة عند الضرورة أو عند الظرف الملائم. لقد قال للحسن، وقد التقط تمر من الصدقة كخ، كخ، وضربه ورمى بها، وقد تقدم ذلك. وجاء في وصية الرشيد لمؤدب ولده: ولا تمنع في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقومه بالتقريب والملاينة، فإن أبي فالشدة<sup>(١)</sup>. وتحكى الأخبار أن مؤدب ولد كسرى ضربه يوماً دون ذنب جناه وقد رأى نجابته، فلما شكاً ذلك لوالده، أو عندما تولى الملك بعد أبيه، استدعى المؤدب وسأله السبب، فقال: أردت أن أذيقك طعم الظلم حتى لا تظلم الناس.

رابعاً: من الأساليب الصحيحة للتربية لمراقبة السلوك، فليست مهمة المربي إلقاء المعلومات وتقديم التوجيهات فقط، بل يجب عليه أن يراقب تنفيذها، لأن الإهمال يغري الطفل بالتهاون، بل يغري كل إنسان به، فالنفس تميل إلى الراحة والانطلاق من القيود. والغرائز عند الناشئين قوية، والمقاومة العقلية ضعيفة عندهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦] وتقدم أن النبي ﷺ أخرج تمر من تمر الصدقة وضعها الحسن في فمه فقال له «كخ، كخ، ارم بها، أما علمت أنا لا نأكل الصدقة». وروى أبو داود أن عمار بن ياسر قال: قدمت على أهلي ليلاً وقد تشقت يداي، فخلقوني بزعفران، فقابلت الرسول صباحاً فسلمت عليه فلم يرد السلام ولم يرحب بي، وقال «اذهب واغسل عنك هذا» فغسلته ثم جئته فسلمت عليه فرد عليّ ورحب بي.

ولمساعدة الناشئ على الاستقامة وتجنبه الانحراف يجب أن تلقى إليه المعلومات ممزوجة بالترغيب والترهيب معاً، وهى سياسة القرآن وسياسة النبي ﷺ. قال تعالى: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغُفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقال: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا

(١) اخسان للبيهقي ج ٢ ص ٢١٣.

فَلَنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلِيَهَا ﴿﴾ [فصلت: ٤٦] وقال ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ \* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ \* وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿﴾ [النساء: ١٣، ١٤]. وهذا إجراء وقائي يحول دون الاعتذار عند التقصير.

والمراقبة تنتج تشجيع المطيع ومؤاخذة العاصي، والتشجيع كما يكون مادياً بهدية ونحوها يكون أدبياً بكلمة استحسان أو إشادة به بين الأقربين مثلاً، والمؤاخذة أيضاً مادياً كالضرب والحبس وأدبياً كاللوم والتقريع، وهى تختلف فى نوعها وشدتها باختلاف أنواع المخالفة، وباختلاف المخالف نفسه، فقد تكون الكلمة مؤثرة فى البعض تأثير الضرب والحبس فى البعض الآخر أو أشد، كما يقول القائل:

### العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه المقالة

وقد أوصى الإمام الغزالي أن يتجاوز عن أول مخالفة تحدث من الصبى، فلا يهتك ستره ولا يكشفه، ولا سيما إذا سترها واجتهد فى إخفائها، لأن إظهار ذلك عليه ربما يفيد حسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة، وإن عاد ثانياً عوتب سراً، ويهدده بالعقاب إن تكررت مخالفته. وألا يكثر عليه من اللوم فى كل حين، فإنه يهون عليه سماع الملامة، وركوب القبائح، ويسقط وقع الكلام فى قلبه، وأن يكون الأب حافظاً هيبة الكلام معه ولا يوبخه إلا أحياناً<sup>(١)</sup>. كما يوصى أن تكون المؤاخذة بالتعريض لا بالتصريح، حتى لا يجرح إحساسه ويغريه بالعناد. فإن لم يفد ذلك صرح بالإنكار وعاقب بما يراه<sup>(٢)</sup>. وهذا مأخوذ من هدى النبى ﷺ، فإنه كان إذا رأى تقصيراً من بعضهم نبه عليه بالعنوان العام، أو بعدم تحديد الشخص الذى وقعت منه المخالفة. فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله

(٢) المرجع السابق ص ٥٠.

(١) الإحياء ج ٢ ص ٦٣.

ﷺ « ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم »<sup>(١)</sup> فالمقصر يعرف نفسه دون أن يشعر به غيره . وجاء في رواية أبي داود عن عائشة : كان رسول الله ﷺ إذا كره من إنسان شيئاً قال « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا » ورجاله رجال الصحيح<sup>(٢)</sup> .

والعقاب بالضرب موجود منذ القدم في تأديب الأولاد، في البيوت والمدارس وقد رخص به الإسلام في ضرب الزوجة الناشز إذا لم تفلح الموعظة والهجر، وكما تقدم في حديث « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع »<sup>(٣)</sup> غير أنه ينبغي ألا يكون الضرب مبرحاً، وأن يستعمل عند من لا يقومه إلا ذلك كما تقدم في وصية الرشيد للأحمر مؤدب ولده الأمين، وقد دخل ولد لعمر بن الخطاب عليه وقد ترجل - سَوَى شعره - ولبس ثياباً حسنة، فضربه بالدرّة حتى أبكاه، فقالت حفصة : لم ضربته ؟ فقال : أعجبتة نفسه فأحببت أن أصغرها إليه<sup>(٤)</sup> . جاء في فتوى نشرت بمجلة الأزهر<sup>(٥)</sup> أن النبي ﷺ قال لمرداس المعلم « إياك أن تضرب فوق الثلاث، فإنك إن تضربه فوقها اقتص منك » ولم يذكر سنده ولا تخريجه ولا حكمه . واستنتجت الفتوى جواز الضرب بما جرت به العادة، وألا يكون على المقاتل أو الوجه أو الرأس، وألا ينشأ عن ذلك ضرر كتشويه لحم أو كسر عظم، فإن حصل منه شيء من ذلك ضمنه المعلم . إذ لا يزال الضرر بالضرر .

وإذا كنا نوصي الوالد باستعمال الرأفة عند ضرب ولده فإننا نؤكد هذه الوصية بالنسبة إلى المعلم مع تلاميذه، فقد يشتط في الضرب لغيظ شديد ليس هناك ما يخففه من عاطفة الأبوة، فتحدث أخطار لا ينفع معها الندم . أرسل شريح القاضي مع ولده كتاباً إلى معلمه يشكو فيه لعبه بالكلاب جاء فيه :

(١) رواه البخارى . (٢) العراقى على الإحياء ج ٣ ص ١٢٦ .

(٣) رواه أبو داود بإسناد حسن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده - رياض الصالحين

ص ١٩ .

(٤) تاريخ السيوطى ص ٩٦ . (٥) عدد رجب سنة ١٣٩٠ هـ .

ترك الصلاة لأكل يسعى لها  
فإذا أتاك فعضه بلامه  
وإذا هممت بضربه فبدره  
وليحملن مني إليك صحيفة  
واعلم بأنك ما أتيت فنفسه  
طلب الهراش مع الغواة الرجس  
وعظنه موعظة الرفيق الأكيس  
فإذا بلغت بها ثلاثاً فاحبس  
نكراء مثل صحفة المتلمس  
مع ما يجرعني أعز الأنفس

فضربه المعلم عشراً وعشراً، فقال له شريح: لم تُنيت الضرب؟ قال: العشر الأولى للبطالة، والثانية للبلادة حيث لا يدري ماذا يحمل<sup>(١)</sup>. وقد مَرَّ بك ضرب أبي مريم للأمين بن الرشيد وكذلك ضرب أبي محمد اليزيدي للمأمون لما تشاغل عنه<sup>(٢)</sup>.

هذا، وقد قال العلماء: ينبغي أن يكون العقاب جزاء على عمل غير أخلاقي، لا لدافع شخصي ينتهز المؤدب فرصة غلط الناشء فيتشفى فيه بضربه أو عقابه. وابن حجر الهيمتي المتوفى سنة ٩٧٤هـ يرد على أحد مؤدبي الأطفال بأنه لا يجوز للمعلم ضرب الصغير إلا إن أذن له أبوه، ثم يشترط في جوازه بالنسبة للمعلم أن يظنه زاجراً للتلميذ إذا اقتضت الضرورة، وألا يكون مبرحاً، فإذا ظن المعلم أن التلميذ لا ينفعه إلا الضرب المبرح وهو الشديد الإيذاء فلا يجوز إجماعاً، ويعلل ذلك بأن العقوبة إنما جازت بالنسبة للصبى لظن أنها تفيد الإصلاح، فإذا كان الضرر سيأتي منها انتفت.

وقال ابن خلدون في مقدمته<sup>(٣)</sup>: ينبغي للمعلم في متعلميه والوالد في ولده ألا يشتدوا عليهم في التأديب. وقد قال أبو محمد بن أبي يزيد في كتابه الذي ألفه في حكم المعلمين والمتعلمين: لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئاً، ومن كلام عمر رضى الله عنه:

(١) المحاسن للبيهقي ج ٢ ص ٢١٦ والعقد الفريد ج ١ ص ١٩٦.

(٢) المحاسن للبيهقي ج ٢ ص ٢١٥. (٣) ص ٣٩٩.

من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله، حرصاً على صون النفوس عن مذلة التأديب،  
علماً بأن المقدر الذي عينه الشرع لذلك أملك له، فإنه أعلم بمحصلته .

وينبغي أن يعود الناشئ الطاعة للأوامر بالتدرج لتكون اختيارية لا  
إجبارية - وذلك بالإقناع والأساليب المهدبة، فيكسب بذلك ثقته، ويجعله  
يسارع إلى الاستجابة، ولا يحس بأن التربية عبء ثقيل عليه يحاول التمرد  
عليها، وتصبح الطاعة له عادة - والعادة هي نوع من السلوك المكتسب يصبح  
ثابتاً لا يتغير مع التكرار والخبرة بدرجة تجعل من السهل التنبؤ بها إذا ما تهيأت  
الظروف التي تناسب الفعل وتقتضيه، فيصبح الفرد بعد ذلك ليس في حاجة إلى  
بذل الجهد أو توجيه الانتباه إلى العمل الذي يقوم به، وحينئذ يتم العمل  
بشكل آلي .

والعادات مختلفة، ويقول إخوان الصفا<sup>(١)</sup> فيها: واعلم أن العادات الجارية  
بالمداومة عليها تقوى الأخلاق المشككة لها، كما أن النظر في العلوم والمداومة  
على البحث عنها والدرس لها والمذاكرة فيها يقوى الحذق بها والرسوخ فيها،  
وهكذا حكم الأخلاق والسجايا .

خامساً: يجب العمل على إبراز شخصية الناشئ وخلق مقوماتها منذ  
الصغر، ليثب وقد أحس بوجوده وبقيمته في الحياة، ولهذا العمل مظاهر، منها:  
( أ ) تغيير أسلوب معاملته حسب سنه، فهو طفلاً غيره فتى، وقد قيل:  
ولك ريحانتك، فشمها سبعا، وخادماً سبعا، ثم هو عدوك أو شريكك<sup>(٢)</sup> .  
وفي الأمثال العامية: إن كبير ابنك خاويه . أى عامله كالأخ، فهو في دور  
الاستقلال، ولا تعامله معاملة الطفل المؤتمر بكل ما يملئ عليه، والمصادمات  
تحدث كثيراً من عدم مراعاة هذه السياسة التربوية .

(١) جماعة شغلوا في القرن الرابع الهجري بمزج الدين بالفلسفة، وحاولوا إخفاء  
أسمائهم، وتنسب إليهم « رسائل إخوان الصفا » .

(٢) الإحياء ج ٢ ص ١٩٣ .

( ب ) السماح للناشئ بإبداء رأيه في الظواهر المحيطة به والمسائل التي يتعلمها، وتدوين ملاحظاته وتعويده مداومة ذلك، ولا يُمنع من هذا حتى لو جانب رأيه الصواب، بل يجب فسح المجال له ثم إصلاح خطئه بالحسنى، وهذا يعود الطفل التأمل والاستنتاج ومعالجة المشكلات ومواجهة الأزمات بقوة. والحذر كل الحذر من تسفيه رأيه، فذلك يجرح كبريائه، أو يدعوه إلى الجبن والخوف من الوقوف في مثل هذا الموقف حتى لو كان رأيه صواباً. كما يجب عدم الإسراف في لومه إن أخفق في عمل. بل يجب أن تلتمس له المعاذير إن كان يصلحه ذلك، وتوضع يده على موضع الخطأ ليتلافاه فيما بعد. يقول الماوردي في كتابه «أدب الدنيا والدين»: «ومن آدابهم ألا يعنفوا متعلماً ولا يحقروا ناشئاً ولا يستصغروا مبتدئاً، فإن ذلك أرحم إليهم وأعطف عليهم وأحث على الرغبة فيما لديهم. وروى عن النبي ﷺ أنه قال «علموا ولا تعنفوا، فإن المعلم خير من المعنف» وروى عن النبي ﷺ أنه قال «وقرأوا من تتعلمون منه، ووقروا من تعلمونه» اهـ<sup>(١)</sup>. ولا أعرف لهذين الحديثين سنداً. ذكره السيوطي في الجامع الكبير وقال عقبه: أبو إسحاق المشملي في معجمه وأبيه إسحاق في فوائده وابن النجار عن ابن عمر.

( ج ) تعويده الاعتماد على النفس واستقلال الفكر، فلا تلقى إليه كل المعلومات ليأخذها تلقائياً لا نشاط له فيها سوى التلقى، بل ينبغي أن يجعل له نصيب من أعمال الفكر وتحريك الذهن، فتوضع له مقدمات ثم يترك ليصل منها إلى النتائج مثلاً، وإلى جانب أن هذه الطريقة تكسبه هذا التعود فإن فيها اطمئناناً من المربي على مدى استفادة الناشئ منه، وقد سلك النبي ﷺ هذا المسلك في عدة مواقف. فقد روى مسلم<sup>(٢)</sup> أنه قال لأبي بن كعب «يا أبا المنذر، أتدرى أي آية من كتاب الله معك أعظم؟» فقال: الله ورسوله أعلم. ولكنه كرر عليه السؤال فأجاب بقوله «الله لا إله إلا هو الحي القيوم...» فسر النبي به وضرب بيده على صدره وقال «والله ليهنك العلم أبا المنذر».

(١) ص ٧٧.

(٢) ج ٦ ص ٩٣.

وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أتى بُجَمَارُ نخلة فقال « إن من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم، لا يسقط ورقها، أخبرونى ما هى؟ » فوقع الناس فى شجر البوادرى، ووقع فى نفسى أنها النخلة، فأردت أن أقول : هى النخلة، ثم نظرت فإذا أنا أصغر القوم سنا فسكتُ. فقال رسول الله « هى النخلة » فنقل ذلك إلى أبيه عمر، فقال : لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا، يقول ابن القيم تعليقا عن هذا الحديث : فى هذا الحديث إلقاء العالم المسائل على أصحابه وتمرينهم واختبار ما عندهم . وفيه ضرب الأمثال والتشبيه، وفيه ما كان عليه الصحابة من الحياء من أكابرهم وأجلاتهم وإمساكهم عن الكلام بين أيديهم، وفيه فرح الرجل بإصابة ولده وتوفيقه للصواب، وفيه أنه لا يكره للولد أن يجيب بما عرف بحضرة أبيه وإن لم يعرفه الأب، وليس فى ذلك إساءة أدب عليه<sup>(١)</sup>.

ومثل ذلك إلقاء عمر لسؤال على كبار الصحابة فى مجلسه، وكان معهم ابن عباس، يسألهم : ماذا يقصد من سورة ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . . . . ﴾ فلم يعرف الجواب إلا ابن عباس الذى قال : إنها تنعى إلى النبى أجله<sup>(٢)</sup>.

( د ) تعويده الحياة الاجتماعية، باصطحابه معه فى المجالس والزيارات والرحلات والمساجد والمجتمعات، وهو واجب على الآباء والمربين فى المدارس وغيرها، ليألف الأولاد هذه الحياة من صغرهم، وليستطيعوا أن يقدموا خدمات لغيرهم، ومشروع خدمة الحى الذى تقع فيه المدرسة نموذج طيب من تعويد الناشئين على السلوك الاجتماعى . وأما حديث تجنب الصبيان المساجد فقد مر حكمه، وخلاصته منعهم إذا كانوا غير مميزين ويخشى منهم التشويش على المصلين وتلويث المساجد وانتهاك حرمة كما منع البيع والشراء للأمر الأخرى المذكورة فى الحديث .

( هـ ) تعويده تحمل المسئولية فى تحصيل العيش من عمل يكسب منه،

(٢) رواه البخارى .

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ١٩٣ .

فينفع نفسه، وينفع أسرته ووطنه، وإشراكه مع والده فى عمله. ويقال مثل هذا إذا كبر الناشئ فلا ينبغي الحرص على عيشه مع الوالدين والأسرة، بل يشجع على تكوين أسرة جديدة مستقلة، أو على الأقل لا يمتنع من ذلك، فإن استقلاله وتجربته للحياة تكون تحت رقابة الوالدين يصلحان من خطئه، ويقومانه ليطمئنا على مستقبله.

سادساً: قرن العلم بالعمل وتطبيق المعرفة على السلوك، وذلك لتثبيت المعلومات فى ذهن الصبى، وتؤكد الانطباعات فى نفسه وليتبين للمربى مقدار استجابته للتربية، وقد أثر عن العلماء أنهم قالوا: العلم يهتف بالعمل، فإن أجب وإلا ارتحل<sup>(١)</sup>. وقيل للمهلب بن أبى صفرة: بم أدركت ما أدركت؟ قال: بالعلم. قيل له: فإن غيرك قد علم أكثر مما علمت ولم يدرك مثل ما أدركت. فقالك هذا علم استعمل وذاك علم أهمل<sup>(٢)</sup>.

وقد سبقت الإشارة إلى أن المسلمين كانوا يعودون أولادهم الصيام ويلهونهم بكرات الصوف حتى يحين وقت الإفطار. والطفل إذا مارس التطبيق خصوصاً فى الأمور الأدبية كالرحمة بالضعفاء والعطف على الفقراء أمكن أن يحس بما يحس به هؤلاء إلى حد ما. ولو أنه وضع مكانهم فى التجربة لكان أعمق فى إحساسه بما يحسون. ومن الطريف أن فى بعض البلاد الأجنبية مدرسة تعلم الأخلاق للأولاد عملياً، كالعطف على أصحاب العاهات، بأن يفرض على كل واحد أن يكون أعمى فى يوم من السنة - بوضع عصابة محكمة على عينه - ويقوم الآخرون بخدمته.

ومن صور هذا التطبيق العملى غرف الهوايات والقاعات العملية والمزارع الملحقة بالمدارس، وقيام التلاميذ بعمل مسح اجتماعى للمنطقة التى تقع فيها مدرستهم، والقيام بالرحلات وتسجيل المشاهدات، وكذلك من صور التطبيق إحضار اللعب المناسبة للأطفال كعرائس البنات ونماذج مصغرة من أثاث المنزل

(٢) مجلة الأزهر مجلد ٤ ص ٥٤٤.

(١) أدب الدنيا ص ٦٩.

تلهو بها البنت وتنسقها وتستخدمها كما تفعل أمها . يقول النووى فى شرح حديث عائشة أنها زفت إلى النبى ﷺ وهى بنت تسع سنين ومعها لعبها : المراد هذه اللعب المسماة بالبنت التى تلعب بها الجوارى الصغار ، قال القاضى : وفيه جواز اتخاذ اللعب وإباحة لعب الجوارى بهن . وقد جاء فى الحديث الآخر . أن النبى ﷺ رأى ذلك ولم ينكره . قالوا : وسببه تدريجهن لتربية الأولاد وإصلاح شأنهن وبيوتهن (١) .

**سابعاً :** التدرج فى التربية ، إن التدرج فى التربية كما يكون فى المعلومات التى يختار منها ما يناسب مدارك الطفل وتطوره ونموه – يكون فى طريقة الأداء أيضاً ، فلكل سن ومرحلة ما يناسبها ، وللاذكياء والأغبياء ما يناسب مدارك كل واستعداداته يقول ابن خلدون : اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدرج شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلًا ، يلقي عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هى أصول ذلك الباب ، ويقرب له فى شرحها على سبيل الإجمال ، ويراعى فى ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهى إلى آخر الفن . وعند ذلك يحصل له ملكة فى ذلك العلم ، إلا أنها جزئية وضعيفة ، وغايتها أنها هيئاته لفهم الفن وتحصيل مسائله ، ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه فى التلقين من تلك الرتبة إلى أعلى منها ، ويستوفى الشرح والبيان ، ويخرج عن الإجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه ، إلى أن ينتهى إلى آخر الفن فتجود ملكته ، ثم يرجع به وقد شذا – قوى – فلا يترك عويصاً ولا مبهماً ولا مغلقاً إلا وضحه وفتح مغلقه ، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته ، هذا وجه التعليم المفيد . . . . . (٢) .

والتشريع الإسلامى نفسه كان على التدرج فى كثير من مسائله ، وما كان بمكة غير ما كان بالمدينة – مادة وأسلوباً ، ولم تحرم بعض العادات تحريمًا قاطعاً إلا بعد عدة مراحل ، وآية ذلك تحريم الخمر ، فكان أولاً اختيارياً لم يصرح به

(٢) المقدمة ص ٣٩٤ .

(١) صحيح مسلم ج ٩ ص ٢٠٨ .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩] ثم حرمت وقت الصلاة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣] ثم حرمت في كل الأوقات ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ \* إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١]. وكان التحريم النهائى فى السنة الثالثة أو الرابعة أو الثامنة للهجرة. وتفصيل ذلك طويل.

وقد تنبه المسلمون إلى ضرورة التدرج فى التربية، ومن ذلك قول عمرو بن عتبة لمؤدب ولده: لا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام فى القلب مشغلة للفهم<sup>(١)</sup>. وينوصى الغزالي أن يؤخذ المتعلم على قدر فهمه فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخلط عليه عقله، اقتداء فى ذلك بسيد البشر ﷺ حيث قال: «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم، ونكلمهم على قدر عقولهم»<sup>(٢)</sup>. وهذا الحديث لم يرد بهذا الشكل، والذي ورد هو «أنزلوا الناس منازلهم» بدون زيادة. ورواه أبو داود عن عائشة. وورد عن ابن مسعود موقوفاً عليه: ما حدث أحدكم قوماً بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم. وروى مرفوعاً عن ابن عباس لكن بسند ضعيف<sup>(٣)</sup>.

وقال الغزالي أيضاً: وعلى الخائض فى العلم فى مبدأ الأمر عدم الإصغاء إلى اختلاف الناس، فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك - وقال أيضاً: ينبغى ألا يخوض فى فن من فنون العلم دفعة، بل يراعى الترتيب ويبتدىء بالأهم. وقال: وينبغى ألا يخوض فى فن حتى يستوفى الفن

(٢) الإحياء ج ١ ص ٥١.

(١) العقد الفريد ج ١ ص ١٩٦.

(٣) العراقي على الإحياء ج ١ ص ٣٢.

الذى قبله، فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً، وبعضها طريق إلى بعض. والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدرج<sup>(١)</sup>.

ويقول الماوردى: واعلم أن للعلوم أوائل تؤدي إلى أواخرها، ومداخل تفضى إلى حقائقها، فليبتدىء طالب التعلم بأوائلها لينتهى إلى أواخرها، وبمداخلها ليفضى إلى حقائقها، ولا يطلب الآخر قبل الأول، ولا الحقيقة قبل المدخل، فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة. لأن البناء على غير أساس لا يبنى، والثمر من غير غرس لا يجنى<sup>(٢)</sup>.

ثامناً: ورد عن على رضى الله عنه أنه قال: لا تكرهوا فتیانکم على أخلاقکم، فإنهم خلقوا لزمان غير زمانکم، وهذه ملاحظة دقيقة يريد بها ألا يربى العرب أولادهم على أخلاق الجاهلية التى ورثوها كالتعصب والثأر والفخر وما إلى ذلك. لأنهم فى عهد جديد يُعدّون فيه لمهمة كبرى لا تناسبها أخلاق الجاهلية، وعلى هذا الضوء لا ينبغى فى عهد الكفاح والتحرر أن يربى الأولاد على كراهية الجندية والمغامرة. تلك الكراهية التى كانت طابع عهود الاستعباد والاحتلال. ولا ينبغى أن تدرس علوم قديمة لا صلة لها بالحاضر ولا تفيد فى المستقبل الإفادة المطلوبة، اللهم إلا من باب الترف العقلى الذى يكون بعد استكمال الضروريات والأساسيات الضاغطة. ولنا فى تهيئة الله لنبيه محمد منذ الصغر وإعداده لمستقبل عظيم ينتظره – ما يؤكد ضرورة ملاءمة العلم والخلق للعصور والأهداف المشروعة، فقد حمى الله نبيه من شهود سهرات اللهو التى كانت تقيمها قريش. ومن عبادة أصنامهم وشهود أعيادها، وألهمه أن يجلس مجالس الكبار، ويعتمد على نفسه ليكون مستعداً للنهوض برسالته الكبرى.

تاسعاً: وما تجدر الإشارة إليه عدم أخذ الطفل بالجدية الحازمة، وإرهاقه بالعلم واستغلال كل وقته وجهده فى ذلك، بل لا بد من فترات راحة واستجمام يجدد بها نشاطه، ويهيئ نفسه لقبول العلم. والنفس تمل كما تمل الأبدان،

(٢) أدب الدنيا والدين ص ٣٨.

(١) الإحياء ج ١ ص ٤٥، ٤٦.

فلتكن مع المعلومات الجافة والدراسة المرهقة رياضة وإجازات ورحلات وهوايات وأنواع من الترفيه البريء . يقول الغزالي : وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب الكتب بحيث لا يتعب في اللعب، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائماً يميت قلبه ويبطل ذكائه، وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً<sup>(١)</sup> .

والدين يدعو إلى اليسر ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وفي الحديث الشريف «إن الدين متين فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» رواه البزار والحاكم والبيهقي عن جابر مرفوعاً، ورجح البخاري إرساله<sup>(٢)</sup> . وروى الجزء الأول «إن الدين متين فأوغل فيه برفق» أحمد عن أنس بسند حسن<sup>(٣)</sup> وفيه أيضاً «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا»<sup>(٤)</sup> وقال النبي ﷺ لأبي الدرداء وعبد الله بن عمرو بن العاص، وقد أرهقا أنفسهما بالعبادة، «إن لبدنك عليك حقاً ولربك عليك حقاً»<sup>(٥)</sup> . وقال لحنظلة، وقد خاف من ممارسة العمل في ماله والخلوة إلى أهله، «والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة» ثلاث مرات<sup>(٦)</sup> . وقال «هلك المتبظعون» ثلاث مرات<sup>(٧)</sup> . وقد تقدم شيء من ذلك في التربية الرياضية .

تنبيه: تحدث العلماء عن أخذ الأجرة على التعليم، وأفاض في ذلك ابن حجر في كتابه «تحرير المقال»<sup>(٨)</sup> وخلاصته أن بعضاً أجاز ذلك، مستدلين بالحديث الصحيح الذي أخذ فيه الصحابة أجراً على رقية اللديغ بالفاتحة وإقرار النبي لهم عليه وبيان أن أحق شيء يؤخذ عليه أجر هو كتاب الله، وله عدة روايات، كما استدلوا بإرشاد النبي في الزواج إلى دفع المهر تعليماً لبعض القرآن .

(٢) المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٦١ .

(٤) رواه البخاري عن أبي هريرة .

(٦) رواه مسلم عن حنظلة .

(٨) ص ٣١-٤٧، ٩٣ .

(١) الإحياء ج ٢ ص ٦٣ .

(٣) الألباني على الجامع الصغير للسيوطي .

(٥) رواه البخاري ومسلم .

(٧) رواه مسلم عن ابن مسعود .

ومنع البعض ذلك، لنهى النبي عن أخذ قميص فى مقابل تعليم رجل  
سورة من القرآن، أو أخذ قوس، ولحديث «اقرأوا القرآن ولا تأكلوا به» وقول  
النبي فى المعلمين «درهمهم حرام».

وجمهور العلماء على الجواز بلا كراهة، ومنهم الشافعى ومالك وأحمد،  
بناء على الأحاديث الأولى، وأبو حنيفة يمنع بناء على ظاهر الأحاديث الثانية.  
ونقل عن الزهري رأى كأبى حنيفة. ورد الجمهور بضعف أحاديث المنع كلها،  
ولئن كانت صحيحة فهى لا تقوى على معارضة ما فى الصحيحين.

\* \* \*

## الفصل الثامن

### فى إرشادات للمتعلم

#### فى هذا الفصل ثلاثة فروع

#### الفرع الأول - إرشادات نحو المعلم

يقول علماء الأدب والأخلاق: لا بد للمتعلم من عقل يدرك حقائق الأمور، وفطنة يتصور بها غوامض العلوم، وذكاء يستقر به حفظ ما تصور وفهم ما علم، ورغبة يدوم بها الطلب ولا يسرع إليها الملل، ونفقة تغنيه عن الكسب، وفراغ يتوفر به على الطلب، وانقطاع الشواغل من نحوهم ومرض، وطول العمر ليستكثر به ويستكمل، والظفر بعالم سخى فى علمه، متين فى خلقه<sup>(١)</sup>.

وعلى ضوء هذا يمكن أن نفصل واجبات المتعلم نحو طلب العلم، فنورد أهمها فيما يلى:

أولاً: الحرص على طلب العلم، لأن العلم شرف، وهو طريق السعادة فى الدنيا والآخرة. يقول معاذ بن جبل: تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قرينة، وهو الأنيس فى الوحدة، والصاحب فى الخلوة، والدليل على الدين، والمصبر على السراء والضراء، والوزير عند الأخطاء، والقريب عند الغرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم فى الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم أدلة فى الخير تقتفى آثارهم وترمق أفعالهم...

ويقول مصعب بن الزبير لولده: تعلم العلم، فإن يكن لك مال كان لك جمالاً، وإن لم يكن لك مال كان لك ملاً وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: يا بنى تعلموا العلم فإن كنتم سادة فقتم، وإن كنتم وسطا سدتم، وإن كنتم سوقة عشتكم وقال الشاعر:

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي.

(٢) الإحياء ج ١ ص ١١.

الناس من جهة التمثيل أكفاء      أبوهم آدم والأم حواء  
ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم      على الهدى لمن استهدى أدلاء  
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه      والجاهلون لأهل العلم أعداء  
ففرز بعلم تعش حياً به أبدا      الناس موتى وأهل العلم أحياء

ومن قول علي كرم الله وجهه لكميل بن زياد النخعي عامله على هيت:  
العلم أفضل من المال . العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال  
محكوم عليه، والعلم يزكو بالانفاق والمال تنقصه النفقة، مات خزان الأموال  
وبقى خزان العلم، أعيانهم مفقودة وأشخاصهم فى القلوب موجودة<sup>(١)</sup>.

وقيل لبزرجمهر - من حكماء الفرس - : العلم أفضل أم المال؟ فقال : بل  
العلم، قيل: فما بالنار نرى العلماء على أبواب الأغنياء ولا نرى الأغنياء على  
أبواب العلماء؟ فقال: ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال وجهل الأغنياء بفضل  
العلم<sup>(٢)</sup>. وقال بعض الأدباء: الوجود بحر والعلماء جوهره، والزهاد عنبره،  
والتجار حيتانه، والأشرار تماسيحه، والجهال على ظهره كالزبد.

والحرص على العلم يتطلب ما يأتى :

( أ ) المبادرة بالتعلم والسعى إليه من الصغر، وقد تقدمت الإشارة إليه فى  
مقدمة التربية الأدبية، فإن التعلم فى الصغر كالنقش على الحجر.

تنبيه: [ هذه الجملة رويت على أنها حديث عن النبي ﷺ، وجميع طرقه  
ضعيفة أو منقطعة، وجاء بعبارات منها « من تعلم العلم وهو شاب كان بمنزلة  
وسم فى حجر، ومن تعلمه بعد ما كبر فهو بمنزلة كتاب على ظهر الماء ». وذكره  
ابن الجوزى فى الموضوعات، وقال بعضهم إنه ليس مرفوعاً إلى النبي ولكنه  
موقوف على الحسن بلفظ: طلب الحديث فى الصغر كالنقش على الحجر.  
ويراجع فى الموضوعات لابن الجوزى، والآلئ المصنوعة للسيوطى، والفوائد

(٢) أدب الدنيا والدين ص ٢٥.

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ١٧٢.

المجموعة للشوكانى، وكشف الخفا والإلباس للعجلونى، والمقاصد الحسنة  
للسخاوى].

ونقل الأصفهانى فى كتابه «محاضرات الأدباء» قول بعضهم: بادروا  
بتعليم الأطفال قبل تراكم الأشغال، فإنه وإن كان الكبير أوفر عقلاً، إلا أنه أشغل  
قلباً، وقد مرت نماذج ممن نبغوا فى العلم وهم فى سن مبكرة.

(ب) عدم الانقطاع عن التعليم عند الكبر، فالإنسان فى حاجة إلى التعلم  
من المهد إلى اللحد، ومهما بلغ الإنسان قدراً من العلم فهو ما يزال فى حاجة إلى  
الزيادة. قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].  
وليسست هناك غاية ينتهى إليها العلم، قال تعالى: ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا  
قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] وقال: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦]  
ويقول ابن المبارك: لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد  
جهل<sup>(١)</sup>. ونسب إلى الشافعى قوله:

كلما أدبنى الدهر أرانى نقص عقلى وإذا ما زدت علماً زادنى علماً بجهلى

ومما يدل على حرص السابقين على التعلم حتى فى آخر رمق ما ذكره  
ياقوت فى معجمه: أن الفقيه على بن عيسى اللؤلؤى قال: دخلت على أبى  
الريحان البيرونى وهو وجود بنفسه الأخير فقال لى: كيف قلت لى يوماً حساب  
الجدات؟ فقلت إشفاقاً عليه: أفى هذه الحال؟ فأجاب: يا هذا أدع الدنيا وأنا  
عالم بهذه المسألة، ألا يكون خيراً من أن أخليها وأنا جاهل بها؟<sup>(٢)</sup>.

(ج) المواظبة على الدروس ومجالس العلم، فقد تفوت المتعلم مسألة  
هامة أو شرح لموضوع غامض لا يسهل الحصول عليه فى غير هذه  
الفرصة، وتتأكد المواظبة بالنسبة للدروس العملية التطبيقية. ومما يؤثر فى  
ذلك أن ابن رشد لم يتخلف عن شهود مجلس العلم إلا ليلتين، ليلة وفاة أبيه،  
وليلة بنائه بزوجته<sup>(٣)</sup>. ويروى عن أبى يوسف قاضى القضاة أنه قال: مات لى

(٢) تاريخ التربية ص ٣٠٥.

(١) الإحياء ج ١ ص ٥٣.

(٣) مجلة الأزهر مجلداً موضوع كبر الهمة للخضر حسين.

ولد فأمرت من تولى دفنه ولم أدع مجلس أبي حنيفة خوف أن يفوتني منه يوم<sup>(١)</sup>.

( د ) الإمام بمبادئ العلوم، والأخذ من كل علم بطرف، خصوصاً ما يحتاجه الناس ويتداول بينهم ويكثر الحديث عنه، فالجهل بهذه المبادئ فضيحة، وذلك داخل تحت عموم قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]. وكان علماء السلف ملمين بمعارف زمانهم، غير مقتصرين على نوع واحد أو أنواع خاصة من المعرفة، وذلك لتضامن العلوم كلها في الثقافة وخدمة المجتمع. وكان فيهم عدد كبير يصح أن يكونوا نماذج للمتعلمين. ويكفي أن نذكر أن الفارابي كان واسع الاطلاع جَمَّ المعرفة، ضرب في كل علم بسهم وافر، وأخذ من كل العلوم بنصيب كبير، يذكرون أنه دخل على سيف الدولة ابن حمدان، فلما أمره بالجلوس قال: أجلس حيث أنا أو حيث أنت؟ فقال: بل حيث أنت، فتقدم وزاحمه على الكرسي. ولما كبر عليه ذلك اختبره فوجده على علم غزير واطلاع واسع بزمّ به أقرانه، مع إجادة عدة لغات وتمم مجلسه بإظهار تفوقه في الموسيقى، فضرب الحنا ثم الحنا... لكل منها تأثيره الخاص، وفي النهاية ضرب الحنا أنام الحاضرين وتركهم وخرج. وهذه الحادثة وإن كان يستغربها بعض الكاتبين<sup>(٢)</sup> إلا أن القدر المتفق عليه أنه كان على اطلاع واسع، مثله مثل كثير من العلماء كابن سينا وابن رشد والكندي والبيروني والسيوطي.

ومن أراد أن يتخصص في علم من العلوم فليكن بعد المعارف الأولية العامة، وإذا كنا ندعو إلى الحرص على الألوان المختلفة في مبادئ العلوم فأنا نركز على العلوم الهامة التي يستفاد منها في مجال التطبيق، أو تتصل بحاضر الجماعة ومستقبل الأمة أو تخدم خدمة ظاهرة. أما علوم التسلية والبحث والألغاز المستعصية والعلوم المندثرة فالأولى إدخال الجهد فيها لما هو أهم. يقول سهل بن هارون: إن من أصناف العلوم ما لا ينبغي للمسلمين أن ينظروا فيه، وقد يرغب عن بعض العلم كما يرغب عن بعض الحلال.

هذا، وأنصح بتعليم اللغات الأجنبية ما استطاع الناشء إلى ذلك سبيلاً،

(١) تاريخ التربية ص ٣٠٤. (٢) تراث الإنسانية ج ٢ ص ٥٧٣.

فهى الباب الواسع والنافذة الكبرى التى يطل منها على العالم كله، يقول الشاعر:

بقدر لغات المرء يكثر نفعه      وهنَّ له عند الشدائد أعوان  
فبادر إلى حفظ اللغات مسارعا      فكل لسان فى الحقيقة إنسان

روى البخارى تعليقا والبغوى وأبو يعلى موصولاً عن زيد بن ثابت الأنصارى قال: أتى بى إلى النبى ﷺ مقدّمه المدينة، فقيل: هذا غلام من بنى النجار وقد قرأ سبع عشرة سورة، فقرأت عليه فأعجبه ذلك، فقال «تعلّم كتاب يهود، فإنى ما آمنهم على كتابى». فتعلّمت فما مضى لى نصف شهر حتى حدقته، فكنت أكتب له إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأت له<sup>(١)</sup>. وعن أبى جمرة: كنت أترجم بين ابن عباس وبين الناس، فقال: إن وفد عبد القيس أتوا النبى...<sup>(٢)</sup>. فتعلّم اللغات مشروع يجب أن يكون فى الوطن من يتقنونها كلها حتى لا يعيش المجتمع فى عزلة عن العالم الذى غزا بثقافته ووسائل اتصالات كل مناطق الأرض.

(هـ) عدم الاستحياء من السؤال عما يجهل، فالله تعالى يقول: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧]، ويقول: ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] والعلم خزائن مفاتيحها السؤال، وشفاء العي - كما يقولون - هو السؤال<sup>(٣)</sup>. والسؤال بقصد الاستفادة للعمل مأمور به، أما السؤال لغرض الجدل والمماراة والتشكيك وإظهار المقدرة العلمية فمنهى عنه، ويحمل عليه قوله ﷺ «إن الله كره لكم قيل وقيل وكثرة السؤال وإضاعة المال»<sup>(٤)</sup> وقوله «ذرونى ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»<sup>(٥)</sup>.

(٢) البخارى ج ١ ص ٣٢.

(١) الزرقانى على المواهب ج ٣ ص ٣٢٣.

(٤) رواه البخارى عن المغيرة بن شعبة.

(٣) أدب الدنيا والدين ص ٦٢.

(٥) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة.

وكيف يذم السؤال من أجل المعرفة الجادة وابن عباس لما سئل: بم نلت العلم؟ قال: بلسان سؤال وقلب عقول. والصحابة كانوا يسألون النبي ﷺ فيما يهمهم من أمور الدين، وقد ورد في الحديث «حسن السؤال نصف العلم» رواه البيهقي وابن السنن عن أنس، وله شواهد<sup>(١)</sup>.

ويتصل بهذه النقطة عدم حياء البنات من السؤال عن أمور يستحيا منها في غير مقام التعلم، كالمسائل الجنسية. وليكن عرض الموضوع والإجابة عليه بصورة مؤدبة كريمة، تبدو فيها الجدية والرغبة الصادقة في المعرفة. وقد مدحت السيدة عائشة نساء الأنصار بأن الحياء لم يمنعهن من التفقه في الدين كما رواه البخاري ومسلم. سألت أم سليم رسول الله ﷺ عن حكم الاحتلام قائلة: إن الله لا يستحي من الحق، وقد أخذت عليها عائشة هذه الصراحة المكشوفة قائلة: فضحت النساء، تربت يمينك، فقال لها النبي ﷺ «بل أنت تربت يمينك»<sup>(٢)</sup>.

(و) الضنُّ بالوقت أن يشغل بغير العلم وما يساعد عليه، فلا ينبغي صرفه في اللهو الفارغ الذي لا يقصد به الترويح والاستجمام لمعاودة تلقى العلم. ويتأكد ذلك في أيام الشباب، حيث القوة البدنية والأمل الواسع وقلة الصوارف والهموم. ويقول النبي ﷺ «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»<sup>(٣)</sup> ويقول «اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»<sup>(٤)</sup>. وقال بعض البلغاء: من أمضى يومه في غير حق قضاءه، أو فرض أداه، أو مجد أثله، أو حمد حصله، أو خير أسسه، أو علم اقتبسسه، فقد عرق يومه وظلم نفسه<sup>(٥)</sup> يقول الإمام الشافعي:

(١) المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٦٢.

(٢) رواه مسلم ج ٣ ص ٢٢.

(٣) رواه البخاري عن ابن عباس.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا باسناد حسن عن ابن عباس.

(٥) أدب الدنيا والدين ص ٤٥.

سهرى لتنقيح العلوم أذلى  
وتمايلي طربا حل عويصة  
وأذ من نقر الفتاة لدفها  
وصرير أقلامى على صفحاتها  
أبيت سهران الدجى وتبيته  
نوما وتبغى بعد ذاك لحاقى؟  
من وصل غانية وطيب عناق  
أشهى وأعظم من مدامة ساق  
نقرى لألقى الرمل عن أوراقى  
أبهى من الدوكاء والعشاق

( ز ) عدم ترك المسألة تمر دون الوقوف أمامها والتأمل فيها لفهمهما  
وتقليب النظر فى جوانبها لتستقر فى بؤرة الشعور، فتثبت وترسخ فى الذهن،  
فالمعارف العابرة التى تمس حاشية الشعور فقط سريعة التبخر، ولا تركزن على  
أنك تستطيع الرجوع إليها فى الكتب عند الحاجة، فقد تضطر إليها ولا سبيل  
إلى الكتب أو قد يصعب عليك العثور على موضعها منها، يقول العرب فى  
أمثالهم: حرف فى قلبك خير من ألف فى كتبك . ويقولون: لا خير فى علم  
لا يعبر معك الوادى، ولا يعمر بك النادى، ويقول الشافعى:

علمى معى حيثما يمت ينفعى  
إن كنت فى البيت كان العلم فيه معى  
أو كنت فى السوق كان العلم فى السوق  
علمى معى حيثما يمت ينفعى  
قلبى وعاء له لا بطن صندوقى  
إن كنت فى البيت كان العلم فيه معى  
أو كنت فى السوق كان العلم فى السوق  
( ح ) عدم حفظ المسائل دون فهم لها، حتى لا تكون كنزاً ضاعت مفاتيحه،  
والحافظ غير الفاهم كالكتاب المسطور لا يدفع شيئاً ولا يؤيد حجة، أو كباسط  
كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه . أو كما يقول القائل:

ومن المصائب والمصائب جمعة  
قرب الدواء وما إليه وصول  
كالعيس فى البيداء يقتلها الظما  
والماء فوق ظهورها محمول

( ط ) تقييد العلوم فى الكتب ليضمن وجودها، فإن الحفظ وإن كان  
محموداً غير أن الذاكرة معرضة للضعف، والنسيان محتمل لكبر السن أو للمرض  
أو لشواغل أخرى، وفى هذا يقول الخليل بن أحمد: ما فى الكتب رأس المال،  
وما فى قلبك النفقة، كما أن العلم المقيد يمكن أن يستفيد منه الغير بالاطلاع

عليه إذا لم يستطع أن يتعلمه ويتلقاه من صاحبه . يقول «مهبوذ» : لولا ما عقدته الكتب من تجارب الأولين لا نحل مع النسيان عقود الآخرين<sup>(١)</sup> .  
ويقول الشاعر:

العلم صيد والكتابة قيده      قيد صيودك بالحبال الوثيقة  
فمن الحماسة أن تصيد غزاة      وتعيدها بين الخلائق طالقة

(ي) أخذ العلم من جميع مظانه وبجميع وسائله، فى المدرسة والمكتبة والبيت والنادى والفضاء، من الصحف والمجلات والإذاعات والمحاضرات وسائر الوسائل، ففى الحديث «الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أجدر بها» رواه الترمذى وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفى معناه «خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت». بل إن من الحيوانات والطيور والجمادات ما يمكن للإنسان بالتأمل فيه أن يفيد معارف وأخلاقاً، ولا يضير هذه المأخوذات أن تكون هذه الأشياء مصادرهما وأوعيتها، فابن المقفع يقول: اللؤلؤة الفاتنة لا تهون بهوان غائصها الذى استخرجها<sup>(٢)</sup>. قال الرياحى فى خطبته بالمربد: يا بنى رياح، لا تحقروا صغيراً تأخذون عنه، فأنى أخذت من الثعلب روغانه، ومن القرد حكايته - تقليده ومحاكاته - ومن السنور ضرعه، ومن الكلب نصرته، ومن ابن آوى حذره، ولقد تعلمت من القمر سرى الليل، ومن الشمس ظهور الحين بعد الحين<sup>(٣)</sup>. وحكى المسعودى عن بعض حكماء الفرس أنه قال: أخذت من كل شىء أحسن ما فيه، حتى انتهى بى ذلك إلى الكلب والهرة والخنزير والغراب. قيل له: فما أخذت من الكلب؟ قال: إلفه لأهله وذبّه عن صاحبه. قيل: فما أخذت من الهرة؟ قال: حسن تأنيها وتملقها عند المسألة، قيل: فما أخذت من الخنزير؟ قال: بكوره فى حوائجه. قيل: فما أخذت من الغراب؟ قال: شدة حذره<sup>(٤)</sup>.

(٢) تاريخ التبرية ص ٣٠١ .  
(٤) حياة الحيوان للدميرى - غراب .

(١) أدب الدنيا والدين ص ٤٩ .  
(٣) العقد الفريد ج ١ ص ١٥١ .

ثانياً : الصبر والتحمل للمشاق في سبيل الحصول على العلم، فإن الضجر يقيد الهمة ويفوت الفرصة، ومن لم يتحمل ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبداً ومن تعب صغيراً استراح كبيراً، ومن جلس صغيراً حيث يكره جلس كبيراً حيث يحب، فلا تتألم من التمارين القاسية والواجبات الكثيرة والمسائل المعقدة، والسنوات الطويلة والمواصلات الصعبة والعيش الخشن والجو القاسى والنفقات الباهظة، فكل ذلك يهون في سبيل الغاية الكريمة، يقول ابن عباس: ذلت طالباً فعززت مطلوباً<sup>(١)</sup>. ويقول الأصفهاني في المحاضرات: لا يتأدب الرجل حتى يتجنب الفراش الوطىء والدثار الدفىء، وذكر ياقوت في معجمه أن الأحمر صاحب الكسائي كان رجلاً نوبياً - صاحب نوبة - على باب الرشيد، وكان يحب علم العربية، فكان يرصد مسير الكسائي إلى الرشيد ويعرض له في طريقه كل يوم، فإذا أقبل تلقاه وأخذ بركابه، ثم أخذ بيده وأنزله وما شاه إلى أن يبلغ الستر، وسأله في طريقه عن المسألة فإذا دخل الكسائي رجع الأحمر إلى مكانه، حتى إذا خرج الكسائي من الدار تلقاه لدى الستر وأخذ بيده وسأله إلى أن يركب ويجاوز المضارب ثم ينصرف إلى الباب، فلم يزل كذلك يتعلم المسألة بعد المسألة حتى تمكن، ثم صار بعد ذلك معلماً لأولاد الرشيد<sup>(٢)</sup>.

وكان ابن عباس يتحمل المشاق في سبيل تحصيل العلم، فقد انتظر على باب زيد بن ثابت من الظهر إلى العصر بين الحر والريح السافية حتى إذا خرج سأله ما يريد، وسيأتى بتمامه، وصور التحمل كثيرة، منها:

( أ ) تحمل متاعب الرحلات والأسفار والبعثات إلى البلاد النائية في أجواء مختلفة ومجتمعات متغايرة وطباع متنوعة، والإسلام حث على طلب العلم ولو في أقصى البلاد<sup>(٣)</sup>، وقد وصل طلاب العلم في الماضي إلى أقاصى البلاد، يتلقون العلم عن العلماء الموزعين في الأمصار، قبل أن توجد الكتب وتبنى

(١) أدب الدنيا والدين ص ٥٩ . . (٢) تاريخ التربية ص ٣٠٥ .

(٣) حديث «اطلبوا العلم . ولو في الصين» متنه مشهور وسنده ضعيف كما قال

العراقي - الإحياء ج ١ ص ٨ .

المدارس وتيسر السبل، فكان الواحد منهم يسافر شهوراً من أجل حديث واحد ومسألة واحدة، وقد يجد ناقه يركبها وقد يمشى على قدميه فى طرق غير معبدة ومسالك موحشة غير مألوفة . وصدق الذى يقول :

### ترديدن إدراك المعالى رخيصة ولا بد دون الشهد من إبر النحل

يقول أبو الدرداء: لو أعيننى آية من كتاب الله فلم أجد أحداً يفتحها على إلا رجلاً بَبْرُكُ الغمّاد لرحلت إليه: وبرك الغمّاد مكان بالحبشة، والمراد المبالغة فى بعد المكان، ويقول الشعبى: لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكيمة ما رأيت أن سفره ضاع<sup>(١)</sup> وسافر جابر بن عبد الله إلى محمد بن مسلمة والى مصر ليسمع حديثاً فى ستر المؤمن، ثم رجع دون أن يدخل له داراً أو ينزل عن ناقته كما رواه الطبرانى فى الأوسط<sup>(٢)</sup>. ورحل مسروق ابن الأجدع من الكوفة إلى البصرة ليعلم تفسير آية فليل له: إن المفسر فى الشام فسار سألبيه حتى علمها<sup>(٣)</sup>. ورحلة الشافعى لطلب العلم فى المدينة ومكة واليمن والعراق ومصر مشهورة، على الرغم من قلة المال وصعوبة المواصلات. كذلك رحلة البخارى فى جميع الأمصار ليجمع الحديث فى ستة عشر عاماً، أنتجت جامعه الصحيح الذى أجمع العلماء على أنه أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى، ورحل سهل التستري وهو ابن ثلاثة عشر عاماً إلى البصرة وغيرها، كما رحل يحيى بن يحيى الليثى من قرطبة، وعمره ثمان وعشرون سنة، إلى المشرق فسمع من مالك بالمدينة وسفيان بن عيينة بمكة والليث بن سعد وغيره بمصر، ثم عاد إلى الأندلس، ويحكى ابن خلكان أن ابن الخطيب التبريزى حمل كتاب التهذيب فى اللغة على ظهره، وكان فى عدة مجلدات، وسار على رجليه من تبريز بفارس إلى معرة النعمان بالشام ليحقق الكتاب على أبى العلاء المعرى، ومن كثرة عرقه تسرب إلى الكتاب وبُلِّله وهو حامله<sup>(٤)</sup>. وغير هؤلاء كثيرون رحلوا

(٢) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٩٨ .

(٤) تاريخ التربية ص ٣١١ .

(١) تاريخ التربية ص ٣٠٨ .

(٣) مقدمة تفسير القرطبي .

إلى البادية وتنقلوا في المدن لطلب العلم، كما كان هناك رحالة للكشف كابن بطوطة وابن جبير وغيرهما.

(ب) ومن مظاهر الصبر والتحمل عدم اليأس إذا تعثر في الطريق مرة وتخلف عن زملائه سنة مثلاً، فالطريق ليست دائماً مفروشة بالورد<sup>(١)</sup> ومن سار على الدرب وصل، ومن مدّ القرع للأبواب سيلج لا محالة.

وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرِ يَحَاوِلُهُ وَاسْتَشْعَرَ الصَّبْرَ إِلَّا فَازَ بِالظَّفَرِ

وكم هناك من عظماء تعثروا في الطريق ثم كتب لهم النجاح بعد، وفي ذلك حكمة لا يعلمها إلا الله وبعض الراسخين، ولعل من الحكمة أن يذوق الإنسان مرارة الإخفاق ليدرك حلاوة النجاح، فبضدها تتميز الأشياء، وقد تكون الحكمة هي التفتن لمواطن الخطأ وتلافيها في المستقبل، أليس في الدرس الذي أخذه المسلمون في غزوة أحد عبرة؟ قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ \* وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١]

هَذَا قُلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴿ [آل عمران: ١٦٥]. ومن هنا لا ينبغي أن تظلم الحياة في وجه الناشئ، ويتمنى الموت للخلاص منها، وقد مرّ قول النبي ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه، فإن كان لا بد فاعلاً فليقل، اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»<sup>(٢)</sup>. وإذا كان النبي ينهى عن مجرد تمنى الموت فهو ينهى أشد النهى من باب أولى عن التخلص الفعلية من الحياة بالانتحار، فهو جريمة كبرى يصور بشاعتها قول النبي ﷺ «من قتل نفسه بحديدة فحديده في يده يتوجأ في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبداً، ومن شرب سما فقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا

(١) الطريق يذكر ويؤنث. (٢) رواه البخاري ومسلم عن أنس.

فيها أبداً، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً»<sup>(١)</sup>.

(ج) ومن صور التحمل عدم التبزم بالعقاب الذي يوقع على الناشئ نتيجة الخطأ، فهو لإصلاحه وتهذيبه. والمريض يتجرع الدواء المر، وتجري له العملية الجراحية الشاقة. بغية الشفاء والراحة. ولا أدل على رضا العقلاء بهذا العقاب من القول المتداول «عصا الفقيه من الجنة» وهي كلمة كانت تسمع إلى عهد قريب قبل أن تظهر النظريات التربوية الجديدة التي توصى بعدم ضرب الأولاد، وكم خرّجت هذه العصا من علماء وأبطال، وكان الأقدمون لا يرون بأساً من ضرب المعلم لأولادهم بل كان كثير من الأولاد إذا ضرب استحيوا أن يخبر أهله، وقد مر بك قول الرشيد لأبي مريم في تأديب ولده، وقد ضربه: اقتله، فلأن يموت خير من أن يموق. وحدث أن أبا محمد اليزيدي مؤدب المأمون ضربه حتى أبكاه، فلما دخل عليه الوزير جعفر بن يحيى بادر بمسح دموعه وجلس كأن لم يكن شيء، فتركهما المؤدب وخاف أن يخبره بذلك، فلما انصرف جعفر سأل المأمون: هل أخبره بشيء، فقال: ما كنت لأطلع الرشيد على هذا فكيف بجعفر؟ إني أحتاج إلى أدب<sup>(٢)</sup>.

ثالثاً: عدم الشواغل التي تصرف الطالب عن العلم، وتوفير الراحة له ليقبل عليه تحصيلاً وتركيزاً، فالعلم، كما قيل، لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، ومن هنا امتدحوا للطالب ألا يرتبط بزواج أو عمل خارجي إذا كان مستغنياً عنه، كما امتدحوا التغرب عن مسقط رأسه بعداً عن مشاغل الأسرة والناس، وهذا كله من وحي قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤]. ذكر ياقوت في معجمه أن محمد بن القاسم الأنباري كانت عنده جارية جميلة فتن بها، فكان إذا طلب مسألة خفيت عليه شغل قلبه بها، فقال لخادمه: خذها إلى الناس وبعها، فليس يبلغ قدرها أن يشغل قلبي عن علمي<sup>(٣)</sup>.

رابعاً: تطبيق العلم على العمل والتخلق بما يتعلمه من الأخلاق، وقد سبق

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٠٩.

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(٣) تاريخ التربية ص ٣٠٥.

أن التطبيق يثبت المعلومات ويركز الأخلاق ويمرّن عليها، وكل شيء بالممارسة يقوى ويتأكد، كما سبق قولهم: العلم يهتف بالعمل، فإن أجب وإلا ارتحل، وقول المهلب بن أبي صفرة فى الإفادة من علمه وعدم استفادة غيره منه، ذلك علم حمل، وهذا علم استعمل، والقليل من العلم مع التطبيق خير من كثير مهمل، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حَمَلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥] وجاء صعصعة عم الفرزدق إلى النبي ﷺ يتعلم القرآن، فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ \* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] قال: حسبى لا أبالى ألا أسمع غيرها، فلما انصرف قال له النبي ﷺ: «أفلق الرُّويجِل»<sup>(١)</sup> وفى رواية قال «انصرف وهو فقيه» رواه أبو داود والنسائى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبد الله ابن عمر<sup>(٢)</sup>.

على أن التطبيق قد يخلق معلومات جديدة ويكشف مجهولات، ويوجد حلولاً ويفتح مغاليق، ولعل مما يشير إلى ذلك القول المأثور: من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم، وليس هذا بحديث بل ذكره أحمد عن بعض التابعين عن عيسى<sup>(٣)</sup>.

خامساً: تقوى الله، بالمحافظة على فعل الأوامر واجتناب النواهي، فإن من آثارها نور البصيرة والتوفيق إلى الصواب، وتيسير الأمور وتفريح الكروب، وهى أمور لازمة لطالب العلم ولكل مجاهد فى الحياة، قال تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩] أى يجعل لكم قوة تفرقون بها بين الحق والباطل والخطأ والصواب، وهى تعتمد على صفاء العقل وحدة الذهن وإشراق الروح، وقال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ

(١) تصغير رجل على غير قياس ولعله تصغير راجل أى ماش وليس راكباً.

(٢) غذاء الألباب ج ١ ص ٣٨.

(٣) الإحياء ج ١ ص ٢٥٨.

يُسْرًا ﴿ [الطلاق : ٥ ] وقال : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا \* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٤] . وقال الشافعي :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي  
وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدي لعاصي

ومن التقوى أن يطلب العلم لا يقصد به مالا أو شهرة، أو شيئاً من زخرف الدنيا، ومن قصد بعلمه وجه الله أغناه من فضله وأعلى قدره ويسر له الأمر وأتته الدنيا راغمة، والتعلم بهذه النية يريح الطالب من الحيرة عند اختيار نوع معين من التعليم في المعاهد والكليات، فهو يجتهد ويستخير ويستشير ليطمئن على مستقبله في كليه تُدرِّس عليه ربحاً كبيراً، أو توصل إلى منصب له شأن، كما أن التلهف على الدنيا وطلبها عن طريق العلم يوقع الناشئ في مآزق، ويدخله مداخل السوء التي تمس شرفه وكرامته فهو يذل ويهون ويتملق ويكذب ويسعى ليصل إلى غرضه عن هذا الطريق .

لقد كان الأئمة الأعلام يطلبون العلم لذات العلم، ويعلمون الناس لوجه الله، ولا يرضون بعلمهم بديلاً مهماً كان شأنه، هذا مالك بن أنس لم يرض بجوار النبي ﷺ بديلاً من منصب أو مال في بغداد، وأبو حنيفة كان تاجراً يكسب قوته من عمله، والشافعي كانت توهب له الأموال فيوزعها، مكتفياً بالقليل الذي يحفظ حياته ويصون عرضه وشرفه، ويساعده على طلب العلم ونشره، وهو القائل في عفة الناس عن الدنيا :

أمطرى لؤلؤاً سماء سرنديب وفيضى أنهار تبريز تبراً  
أنا ما عشت لست أعدم قوتا وإذا مت لست أعدم قبراً  
همتى همة الملوك ونفسي نفس حر ترى المدلة كفرأ

والقائل أيضاً :

على ثياب لو تباع جميعها بفلس لكان الفلاس منهن أكثرأ

وفيهن نفس لو يقاس ببعضها      نفوس الوري كانت أجل واكبرا  
وما ضر نصل السيف إخالق غمده      إذا كان غضبا حين وجهته برى

وليعلم الطالب أن السعادة في الدنيا ليس طريقها المال أو المنصب وحسب، فهي معنى باطنى ينبع من داخل النفس أساسه القناعة والرضا والشعور بالعزة والكرامة، وكم لأصحاب الأموال والمناصب من هموم!! قال زياد لأصحابه: من أغبط الناس عيشاً؟ قالوا: الأمير وأصحابه، قال: كلا، إن لأعواد المنابر لهيبة، ولقرع لجام البريد لفرجة، ولكن أغبط الناس عيشاً رجل له دار يسكنها وزوجة سالحة يأوى إليها، فى كفاف من عيش لا يعرفنا ولا نعرفه، فأن من عرفنا وعرفناه أفسدنا آخرته ودنياه<sup>(١)</sup> كما أن العلم ليس وحده طريق المال فله طرق كثيرة، وخيره ما أغنى صاحبه عن الناس وحفظ عليه دينه ودنياه.

فليكن طلب العلم لذات العلم، فهو شرف لا يعدله شرف وليقصد به وجه الله فإنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وليسمع قول النبي ﷺ: «لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولتماروا به السفهاء، ولتصرفوا وجوه الناس إليكم، فمن فعل ذلك فهو فى النار»<sup>(٢)</sup> وقوله «من طلب علماً مما يبتغى به وجه الله ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»<sup>(٣)</sup> وقوله «أوحى الله عز وجل إلى بعض الأنبياء، قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، يلبسون للناس مسوك الكباش وقلوبهم قلوب الذئاب، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر، إياى يخادعون وبى يستهزئون، لأتيحن لهم فتنة تذر الخليم حيران»<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢٩٤ . (٢) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح .

(٣) رواه أبو داود وابن ماجه عن أبى هريرة بإسناد جيد .

(٤) رواه ابن عبد البر بإسناد صحيح عن أبى الدرداء .

## الفرع الثاني

### إرشادات نحو المربي

المعلم أب روحى، وتقدم قول الرسول ﷺ: «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده» وقد رجح كثير من العلماء حقه على حق الوالد، وقالوا فى ذلك: الآباء ثلاثة، أب ولدك، وأب ربك، وأب علمك، وخير الآباء من علمك، الوالد يربى جسماً فانياً، والمعلم يربى روحاً باقياً، كما يقول الشاعر:

من علم الناس كان خير أب      ذاك أبو الروح لا أبو الجيف<sup>(١)</sup>  
ويقول شوقى:

قم للمعلم وفه التبجيلا      كاد المعلم أن يكون رسولا

ومن كانت منزلته كذلك يجب أن يكرم ويحترم، وقد جاء فى القول المأثور عن أنس: من وقّر عالماً فقد وقّر ربه، وقد أخذ عبد الله بن عباس بركاب زيد بن ثابت وهو يركب بغلته، فلما قال له زيد: خلّ عنها يا ابن عم رسول الله، قال: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا، فقبل زيد يده وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا. رواه الطبرانى والحاكم والبيهقى وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم.

أشرف الرشيد خلّسه على الكسائى وهو يعلم ولديه الأمين والمأمون، فلما انفض المجلس وقام الكسائى قدّم إليه التلميذان نعله، فقبل رأسيهما وعزم عليهما ألا يعودا، بعد مدة قال له الرشيد: أى الناس أكرم خدما؟ قال: أمير المؤمنين أعزه الله: فقال: لا، بل الكسائى يخدمه الأمين والمأمون، وحديثه الحديث. وكان الواثق يكرم مؤدبه للغاية، ولما سئل من هذا الذى فعلت به ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا أول من فتق لسانى بذكر الله، وأدنانى من رحمة الله<sup>(٢)</sup>.

(٢) تاريخ السيوطى ص ٢٢٨.

(١) أدب الدنيا والدين ص ٦١.

وإذا كان احترام المودب لمنزلته وشرفه فإن ذلك أيضاً سبب في إقباله على الطالب والإخلاص في تعليمه، كما يقول القائل:

إن المعلم والطبيب كلاهما لا ينصحان إذا هما لم يكرما  
فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه واصبر لجهلك إن جفوت معلما  
وبتمثل احترامه في مظاهر كثيرة، منها:

( أ ) طاعته والاستجابة لتوجيهاته، فهو أدرى بالخير له، وهو أمامه كالطبيب، فلا بد من تقبل دوائه وعلاجه، والامتثال لإرشاداته.  
( ب ) التواضع له وعدم التكبر عليه، فالطالب محتاج، ومن كان محتاجاً كان أقل من المحتاج إليه، ويتبع ذلك عدم احتقاره لرقه حاله أو تواضع ملبسه مثلاً، فإن شرفه في علمه وخلقه وكونه معلماً لغيره، لا في ماله ومظهره، ويقول القائل:

فالمسك بينا تراه ممتهاً بفهر عطاره وساحقه  
حتى تراه في عارضى ملك وموضع التناج من مفارقه<sup>(١)</sup>  
( ج ) الأدب معه في الحديث ونداؤه بألفاظ التكريم، وعدم الإدلال عليه حتى لو رفع الكلفة، كما يكون بعدم إظهار الاستغناء عنه، أو بأنه أعلم منه، فذلك طعن لا يقبله أى إنسان عادى، فكيف بمن رباك وكان صاحب الفضل عليك؟ وذلك كفر بالنعمة واستهانة بالحقوق، يقول الشاعر:

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى  
ويقول صالح بن عبد القدوس:

وإن عناء أن تعلم جاهلاً فيحسب جهلاً أنه منك أعلم<sup>(٢)</sup>  
د - الإصغاء إليه والإقبال عليه في درسه، والخشوع في مجلسه وعدم التشويش عليه أو التشاغل عنه، وليكن الطالب في مجلسه كالمنصت لخطبة

(١) أدب الدنيا والدين ص ٥٩ . (٢) المرجع السابق ص ٦٠ .

الجمعة، من تكلم فقد لغا، ومن مسَّ الحِصَا فقد لغا، ومن قال لغيره: أنصت فقد لغا، ومن تخطى الرقاب فقد لغا، والإصغاء سبيل العلم والتمكن منه، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

(هـ) التذلل للمعلم ليظهر له مكنون علمه ويشرح صدره للإفادة منه، وقد روى عن معاذ: ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا في طلب العلم<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٤٩.

## الفرع الثالث

### إرشادات نحو الزملاء

ليعلم التلاميذ أن العلم رحم بين أهله، جمعهم على مائدة واحدة، على الرغم من تعدد أجناسهم واختلاف طبقاتهم ومراكز آبائهم، فليتعامل بعضهم مع بعض كأخوة في أسرة، بالتعاطف والتراحم والتعاون والمحبة والإيثار والتواضع وسائر الأخلاق الاجتماعية المعروفة.

وليجتهد التلميذ أن يتخذ له مجموعة طيبة حسنة الأخلاق مقبلة على العلم، ليتأثر بهم ويفيد منهم، فالصبي - كما يقول ابن سينا - عن الصبي ألقن، وهو منه آخذ، وبه أنس<sup>(١)</sup>. ومن تمام الفائدة أن أدون هنا مقترحات أحد رجال التربية لتؤدى التربية الدينية دورها في المدرسة، وهي مقترحات جديدة بالتقدير تتلخص فيما يأتي:

إن التربية الروحية لا تحتاج إلى عناصر جديدة غير تلك التي تقدم الآن في المدارس، وإنما تحتاج إلى الإيمان بأهميتها، وضرورة العمل لتحقيق أهدافها، وإتاحة الفرصة لمبادئها في أن تأخذ مكانها في شخصية المدرس ونظام المدرسة والنظرة الخلقية الداخلية والمثالية، التي تنبع من الدراسات العادية والتعاليم العربية عن الأخلاق والتوجيه المتزن المباشر المنتظم في كل نواحي سلوك التلميذ.

ودور المعلم كقدوة دور خطير في التربية وكذلك المدرسون يمكنهم أن يجعلوا من المدرسة مجتمعاً سعيداً. ولا تثمر دروس الدين إلا إذا جعلت تعاليمها مادة حية في أذهان التلاميذ وحياتهم، بممارستهم لها ومراقبتهم في حزم وعزم لتصبح طبيعة فيهم وسلوكاً لهم، ويقوم النشاط الديني في المدرسة على الأسس التالية:

(١) تاريخ التربية ص ٢٩٢.

- ١ - تحديد الهدف مع وضوحه ورسم خطة العمل له .
  - ٢ - أن يكون النشاط ملائماً لمستويات الطلاب، مراعى فيه الفروق التي بينهم، محققاً لحاجات نموهم .
  - ٣ - توافر الحرية المنظمة عند ممارسة النشاط، حتى لا يكون بالضغط عملاً مكروهاً .
  - ٤ - أن يقوم النشاط على الديمقراطية والتعاون وتحمل المسؤولية .
  - ٥ - تنوع النشاط بتعدد الميادين والأساليب، حتى ينمى فى الطالب صفات واتجاهات وقدرات متنوعة .
  - ٦ - مراعاة التجانس فى الميول عند تكوين الجماعات .
  - ٧ - مراعاة القصد فى النفقات وتعاون أولياء الأمور مع المدرسة فى ذلك .
  - ٨ - تحقيق التوازن بين النشاط أو المناهج، فكل منهما مكمل للآخر .
  - ٩ - تحقيق الترابط بين النشاط والبيئة ليتفاعل الطالب مع مجتمعه .
  - ١٠ - جدية النشاط الدينى، فلا يكون مثلاً وسيلة لضياح الوقت، أو لغرض ظهور أو مشاركة، بل يجب أن يكون لوجه الله بعيداً عن الشائبات .
  - ١١ - الاهتمام بالنواحي العملية، لأنها تساعد على اكتساب خبرات ومهارات، كالجمعيات التعاونية .
  - ١٢ - الاحتفاظ بآثار النشاط الممتاز التى ينتجها التلاميذ، لأنها مثيرة للتنافس بين السلف والخلف .
- هذا، وقد قرر المؤتمر الثانى لمجمع البحوث الإسلامية المنعقد فى القاهرة فى المحرم سنة ١٣٨٤هـ (مايو ١٩٦٥م) فيما يختص بتربية الشباب ما يأتى :
- ١ - أن التربية الدينية وإشاعة الإيمان والخير فى القلوب هى خير ما ينقذ الشباب مما صار إليه البعض من انحراف وانحدار .
  - ٢ - وأن انحراف بعض الشبان وتركهم شعائر الدين مرض نفسى يعالج

بالرفق والعطف والنصح الذى يصل إلى أعماق النفس، وذلك اتباعاً لأسلوب القرآن، وأوصى بما يلي:

١ - تعريف الشباب بالأمجاد التاريخية للإسلام والعروبة، حتى يزدادوا ثقة بدينهم وتمسكاً بمبادئه السمحة القوية.

٢ - إعداد جيل كامل واسع الثقافة من رجال الدين يتولون تهذيب الشباب وقيادتهم على الأساس التربوى السليم.

٣ - جعل التربية الدينية جزءاً أساسياً من مناهج التعليم فى جميع معاهد المعلمين والمعلمات، أيا كانت المواد التى يتخصصون فى تدريسها.

٤ - أن يكون لوسائل الإعلام نصيب مثمر فى توجيه الشباب وتكوين رأى عام سليم، فى الإذاعة ومجلات الشباب والندوات والصحف والقصص وغير ذلك من الوسائل الإعلامية. حتى يمكن اتقاء الأضرار الناتجة عن دعوات الانحراف والمجون التى تظهر فى بعض وسائل النشر والإعلام.

٥ - أن تؤلف للشباب كتب ملائمة لمستواهم وعقولهم عن أعلام الإسلام وقادة العروبة، وفى التاريخ المقارن، تبرز فيها الحقائق التى توضح جوانب القوة فى الحضارة الإسلامية وفى الصلة بين العبد وربيه وبين الفرد والمجتمع، كما ينبغى الاهتمام بالرقابة على الكتب التى تنشر الانحراف سواء أكانت مترجمة أم مؤلفة، مما يقوم به الأفراد والهيئات، وأن يوضع قانون يحتم عرض هذه الكتب على هيئة مختصة قبل طبعها.

\* \* \*

## الفصل التاسع

### فى وسائل أخرى للتربية

إن انتقال المعلومات وانطباع التوجيهات فى نفوس الناشئين وغيرهم يأتى بعدة وسائل، عن طريق الحواس التى زود الله بها الإنسان للمعرفة، فهو بأذنه يسمع من المربى ومن المذيع. ومن أى قارئ وموجه، وهو بعينه يقرأ الكتب والصحف والإعلانات، ويشاهد التمثيليات والأفلام، ويزور المعارض والأسواق والمتاحف بالرحلات وينظر إلى الأفق ليرى آيات الله فى الكون، وهو بعقله وفكره يبتكر ويكتشف ويستنبط، وبروحه ووجدانه وجزئته يتشرب المعانى من الغير بالقدوة والإيحاء أو التكيف بالجو الذى يحيط به، كحبه لعمل من الأعمال قلْد فيه غيره، وكالتزامه بالقوانين الموضوعة والعرف الجارى .

والمعلومات الثقافية والأخلاقية وسائر المؤثرات قد يحصل عليها الإنسان باختياره وقد يضطر إليها أو تأتية عفواً دون قصد وتكلف، فمن الأولى الذهاب إلى المدرسة والقراءة والمشاهدة والاستماع لما يحبه ويختاره، ومن الثانية إعلانات تضطر الإنسان للنظر، وإذاعات تلاحقه وهو يحاول الهرب منها عند نومه أو مذاكرته أو انشغاله بشىء آخر، وقانون مفروض عليه لا يمكنه أن يتخلص منه، وعرف ضابط يحكم سلوكه، ومنها وسط يعيش فيه لا يجد مناصاً من التأثير به، ومنها ألفاظ تخرق أذنه متقززاً منها يسمعها من الشارع أو من زملائه . . . . وهو بكل هذه الوسائل يتأثر معرفة وسلوكاً، وقد أشرنا فيما تقدم إلى دور المربى من الوالدين ومن المدرس، فلنشر هنا إلى الوسائل الأخرى وما ينبغى أن تكون عليه لتؤدى واجبها فى التربية السليمة .

#### ( أ ) الإذاعة :

الإذاعة منها مسموعة فقط وهى المنقولة عن طريق المذيع «الراديو» ومنها مرئية، وهى المنقولة بالتلفاز «التلفزيون» والإذاعة بشقيها من أخطر الوسائل المؤثرة

فى ناحيتى المعرفة والسلوك، لأنها منتشرة بشكل كبير فى أمكنة وبيئات وأوساط واسعة المدى، ولأنها تيسر المعرفة لغير العارفين للقراءة والكتابة وما أكثرهم، ولأنها تملك من وسائل الإيضاح وأنواع التأثير المسموع والمرئى ما لا يملكه غيرها من الوسائل، لأنها تنقل أنواعاً شتى من المعارف ترضى كل الأذواق أولاً، وتجعل المتأثر بها لا يشعر بالملل والسأم ثانياً، لأن بها مغريات أخرى تحمل الناس على متابعة برامجها. إلى جانب أنها وسيلة لانتقال معارف لا يمكن الحصول عليها إلا بالأسفار البعيدة والنفقات الباهظة، فهى حاملة جميع الثقافات، وقد تغلغلت فى كل الأوساط واستطاع أن يفيد منها أو يتأثر بها الغنى والفقير والرجل والمرأة والكبير والصغير، والمتعلم والامى . وهى تلاحق الإنسان كرهاً بإذاعتها فى البيوت المجاورة أو المحال العامة، لا يجد الإنسان مفراً من التأثر بها، وعلى مدى طويل من الزمان، بل يكاد يستغرق كل ساعات الليل والنهار، والركائز الأساسية لمهنتها هى الإعلام بنشرات الأخبار وغيرها، والثقافة ببرامجها المتعددة، والتسلية بمظاهرها الكثيرة الغالبة، وفى بعض برامجها ما يخص الأطفال وما يخص الشباب وما يخص المرأة وما يخص العمال من النواحي العلمية والصحية والسلوكية والاجتماعية، وفيها من برامج التعليم شىء كثير.

ولما كانت البرامج متنوعة يقصد بها إرضاء كل الأذواق اشتملت أحياناً على أمور تتنافى مع الدين والأخلاق والتقاليد . كالرقص والأغاني العاطفية المثيرة والتمثيلات التى تتعرض للنقد والتجريح لبعض الأشخاص أو الأفكار التى لا يجوز تجريحها، كإعلانات الحفلات الصاخبة والمشروبات المحرمة . . . . كان الخير المرجو منها علماً وخلقاً مشوباً بشر وفساد، وقد يكون الشر والفساد أكثر تأثيراً، لأن هذه البرامج المتملقة للغرائز من الرقص والأغاني مثلاً تذاع بطرق جذابة تؤثر فى كل من سمعها، ويحاول النشء تقليد ما فيها من بطولات لتمثيلات أعجبوا بها، وهو يحفظ الأغاني ويردها غادياً ورائحاً، لأن ذلك كله يتجاوب مع الهوى، ولا يجد صعوبة فى تقبل النفس لها . بل يجد ترحيباً واستعداداً كبيراً.

وإذا كنا نوجه الناس إلى اختيار الاستماع لما هو خير منها، فإن ذلك لا يستطاع إلا بالتحكم فى الجهاز الذى يملكه كل فرد، ولكن لا سبيل إلى ذلك بالنسبة لغيره وللأمكنة العامة. وبهذا تكون المسئولية أكبر على المشرفين على الإذاعة. فهم الذين يستطيعون التحكم فيها، فلا يذيعون إلا الخير النافع، وعليهم وزر إذاعة كل محرم ومفسد للأخلاق، ودعوى إرضاء جميع الأذواق لا تمنع المسئولية فليس كل الأذواق يجب أن ترضى كما قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]. والمفروض فى المسئولين أن يقوموا الأذواق لا أن يتملقوها. والواجب أن تكون هناك هيئة دينية علمية تربوية تشرف على البرامج لا تسمح إلا بإذاعة الصالح منها.

على أن الأمر لو وقف عند حد إذاعة تصدر من دولة لكان أسهل، لكن إذاعات العالم كله مفتوحة، وليس هناك قانون دولى يحتم على كل الدول أن تلتزم بطريقة معينة فى هذه الناحية أو غيرها. وإذا كانت هناك مؤتمرات تعقد للقائمين على الإذاعات فإنها لا تجمع كل ممثلى الدول، ولا تلتزم بتوصياتها الدول المشتركة فيها، والدول تختلف فى ثقافتها وأفكارها. ولها أذواق خاصة فى الاستحسان والاستقباح، فمن الصعب اتفاقها على طريق واحد فى هذا السبيل. ولكن مهما يكن من شىء فإن المحاولات المذكورة تخفف إلى حد ما من حدة التأثير غير المرغوب، وعلى أولياء الأمور من الآباء وغيرهم واجب كبير فى هذه الناحية، والمسألة يلزمها التفاهم والتعاون والشعور بالمسئولية الجماعية.

#### (ب) الصحافة والكتب والمكتبات :

أطلق الكتاب على الصحافة اسم السلطة الرابعة، لقوة أثرها فى توجيه الشعب وإصدار الأحكام على الأشخاص والتصرفات وتكوين الرأى العام، وهى تقوم على الإعلام والأخبار، وعلى الرأى والمعلومات المتنوعة، وتلى الإذاعة فى قوة التأثير، لأن الذى يقرؤها هو المتعلم، أما الأمى فلا يقرأ، وإن سمع فإنه لا يكون كالقارئ. ويقوى أثرها كلما كبرت نسبة المتعلمين وقلت نسبة الأميين، فهى لها

خطرها على كل حال لسعة انتشارها ولوسائل الإثارة التي تملكها، والجانب الدينى والسلوكى فيها قليل جداً، اللهم إلا الصحافة الخاصة بذلك، وهى قليلة غير رائجة، ولا تخرج على الناس إلا فى فترات متباعدة، وإخراجها ليس فى مستوى الإخراج الصحفى للجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية، وإمكاناتها المادية أقل بكثير من غيرها، وكذلك ضعف الروح الدينية عند الناس يجعل الإقبال عليها قليلاً.

وفى بعض أبواب الصحف اليومية ثقافات خاصة بالأطفال والشباب، وبعض بحوث تعالج مشكلات وتمس الأمور المتعلقة بهم، وهناك مجلات خاصة للأطفال، وأخرى للشباب كما توجد صحافة للمرأة. وأثر الصحيفة تابع للمشرفين عليها فى ثقافتهم وآرائهم وروحهم، وللخط المرسوم لها الذى تلزمه ولا تخرج عنه، وكثير من المشرفين عليها لا ينشرون إلا ما يوافق آراءهم فى الحسن الذى يحدده ذوقهم وقوانينهم ولوائحهم التى تحكمهم وتوجههم، ولكثير منهم آراء تربوية وحضارية وأساليب نفاذة لا تتصل بالدين ولا بالخلق، فليس للدين عندهم القداسة الواجبة، وليس الخلق إلا ما وضعوا قاعدته وحددوا مجاله بأنفسهم لا بما يراه الدين. ولعدم وجود هيئة خاصة دينية تربوية تشرف عليها، ولأنها منحت حرية واسعة كانت سلاحاً خطيراً، فكم نقدت وجرحت وروجت وشوهت باسم الحرية. وكثير منها لا يسمح بنشر ما يصحح الخطأ أو يوضح الغامض، إلى جانب الروح المادية النفعية المتسلطة على كثير من أصحابها، فهى تريد ربحاً وبيعاً بنشر كل ما يثير ويسترعى الانتباه دون مراعاة لخلق أو دين.

وإذا كان القارئ لها يتسع خبرة ومعرفة بالمعلومات والأخبار التى تنشرها فإنه لا بد أن يصطدم بما لا يجوز أن ينشر من آراء وإعلانات وصور فاضحة للسهرات واللقاءات المنافية للدين والأخلاق. وهنا يمكن لولى الأمر أن يمنع النشء من قراءة الصحف والمجلات المنحرفة، كما يجب على المسئولين أن يوجهوا

الصحافة وجهة طيبة، ويحدوا من الحرية المعطاة لها، أو يحددوا معالم هذه الحرية، ويحتفظوا للدين والخلق بالقدسية، كما يحتفظ بها للمصالح العليا للدولة.

والمطبوعات الأخرى كالكتب مثلها مثل الصحافة فيما يجب أن تلتزم به، وإذا كانت هناك رقابة على الكتب فلتكن هناك رقابة بهيئة خاصة على الصحف، لكن الكتب أقل رواجاً من الصحف، لأن أسلوبها أعلى ومادتها علمية محضة غالباً، وثمرتها غال أيضاً، فافتناؤها وقراءتها تكون للمهتمين المثقفين القادرين، والمكتبات العامة تحمل بعض العبء من جهة اقتناء الكتب، لأنها تيسر الاطلاع عليها، ولأن بها كتباً نادرة ومخطوطات هامة ومراجع ووثائق لا يستطيع للفرد العادي أن يحصل عليها. ودور الكتب كانت لها رسالتها في العالم الإسلامي قديماً، ومن أشهرها دار الحكمة التي بناها المأمون وجعلها مباحة للعلماء المبرزين خاصة، ليطلعوا وينتجوا، وبها كل الألوان وجميع الثقافات، وفيها ما يتصل بتربية النشء وتوجيه الشباب، وغير خاف أن الإسلام يشجع التأليف ويحث على القراءة والإفادة، فهي وسيلة العلم تحصيلاً ونشراً، وموقفه في ذلك لا يدانيه أى موقف في عالم الأديان، والكتاب من أقوى الوسائل لنشر العلم وتداول الثقافة وانتقالها عبر الأجيال، لأنها تحفظ وتسان وتستطيع الثبات أمام عوامل التخريب والفساد.

### (ج) المسرح والسينما :

المسرح مكان تمثل فيه الروايات بوساطة شخصيات حية تؤدي أدوارها أمام الآخرين. والسينما دار تعرض فيها الروايات والأحداث مسجلة على أشرطة خاصة. وهما يعتمدان في عملهما الأساسى على الترويح والتثقيف، وفي ناحية الثقافة تقوم بطريقتها بعرض شئ مكتوب يدخل فى تقويمه مع الصحف والكتب، ولها فى العرض إخراج خاص وشخصيات نسائية مع الرجال قد تحكم الملابس عليهم أو لا تحكم، فيكشفن عن عورات، ويتلفظن بكلمات ذات وقع غير لائق، وهى ذات تأثير قوى على المشاهدين لأنهم يستعلمون حاستى السمع

إن النجوم التي تلمع في المسارح ودور السينما - والتليفزيون - لها بريق وطنين في آذان وأبصار الناس يسرعون إلى تقليدها في كل شيء في الأسماء والأزياء والتصرفات المختلفة، وقد اتخذت البيوت التجارية أسماء هذه الكواكب وسيلة إعلان تجذب بها الناس إليها، فطريق الجنس واسع ميسر سريع، بل هو أقرب الطرق إلى الوصول إلى الهدف .

### ( د ) دور العبادة :

دور العبادة في المجتمعات الإسلامية وبخاصة المساجد، هي الأمكنة الوحيدة المتوفرة بشكل واضح منتظم، على نشر الفضيلة ومحاربة الرذيلة، وهي من الوسائل الفعالة في هذا المجال، لأنها ترغب وترهب عن طريق العقيدة والعاطفة الدينية، والعقيدة الدينية لها سلطانها على النفوس، إنها مكان للثقافة الدينية بمحاضراتها وخطبها . ومكان للتربية العملية على الخير بما يقام فيها من صلاة شرعت لتنهى عن الفحشاء والمنكر، وفي المساجد يغرس كثير من الفضائل الخلقية الشخصية والاجتماعية، والمساجد فيها تصفى المسائل الدينية وتقوم الآراء المنحرفة، وتحارب البدع المنتشرة، ويوجه الرأي العام وجهة الخير، ولها دورها في الحركات التحررية والنهضات الإصلاحية، وفي الجهاد وحماية الوطن وغير ذلك من الأعمال الجليلة .

إن القاعدة الدينية هي أقوى القواعد في تربية النشء وأرسخها، والمساجد مثابة لتقوية هذه القاعدة والحفاظ عليها، ولهذا جاءت التوصية بالتردد عليها وإفادة الخير منها، أو على الأقل البعد فيها عن فتن الحياة ولهوها، قال تعالى : ﴿ فِي بُيُوتِ أَذُنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ \* رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧] . وهناك أحاديث كثيرة ترغب في التردد عليها، إلى جانب الحث على إنشائها وتعهدتها بالنظافة وتهيئتها للعبادة ، يقول النبي ﷺ : « بشر المشائين في الظلم إلى المساجد

والبصر، مع المشاهدة الحسية لأشخاص الممثلين فى المسارح، فالانتباه إليها أشد، والتأثر بها أوقع، وإذا كانت مادة الرواية غير طيبة تأثر بها المشاهدون بسرعة، وحاول النشء تقليدها فى حياتهم العملية، والنقط الطيبة فى مثل هذه المعروضات قليلة، وتضيع وسط زحام الترفيه بالنقط الأخرى، إلى جانب أن فى الاجتماع للمشاهدة لا تراعى الآداب وبخاصة عند اختلاص الجنسين.

وقد اهتم المنتجون بالربح المادى أكثر من الربح الأدبى فحاولوا إغراء الجمهور بتمثيل الأمور الغريبة، وعرض ما يمكن من الجوانب المحببة إلى النفوس فى مجال الغريزة، وصارت هذه الدور - كما يقال - يقاس فيها نجاح الرواية أو الفيلم بمقدار ما يصرف من شباك التذاكر، فقد تحولت المهنة إلى تجارة أكثر منها ثقافة، وإذا كانت هناك توصيات بمنع بعض الأفلام عن الشبان والأطفال فهى وصايا لا يلتزم تنفيذها، بل تغرى بمشاهدتها «وَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مَنَعًا».

وعلى الجملة فالفائدة المرجوة منها قليلة بالنسبة إلى المفاصد الكثيرة، وهناك بعض قليل جداً من الأفلام التاريخية أو الهادفة إلى معان طيبة. لكنها لا تخلو من مشاهد ترفيحية مثيرة، مراعاة للكسب المادى أيضاً. ولهذا نوصى بعدم التردد عليها، وبخاصة أطفالنا ومراهقونا سريعو التقليد، الذين يحفظون من الأغاني ومن أدوار الممثلين وأسمائهم وتواريخهم ونشاطهم ما لا يحفظونه من القرآن، ولا يعرفونه من تاريخ المشاهير والقادة المسلمين، أو على الأقل أسماءهم، وهى محنة يجب أن يتدخل فيها المسئولون لحماية الأمة.

ولعله لا يغيب عنا انصراف التلاميذ عن دروسهم إلى هذه الدور، مما يؤثر على سير الدراسة وثقافة الناشئ وخلقه، والتبعة ملقاه على المشرفين على هذه الدور والمصرحين بها وعلى أولياء الأمور الذين يصحبون أولادهم إليها أو يسمحون بالتردد عليها دون رقابة. وكل هذا كلام جميل لولا أن الأفلام انتقلت الآن من دور السينما إلى البيوت كلها حيث لا يخلو منها جهاز تليفزيون تعرض فيها كل الأفلام المحلية والأجنبية.

بالنور التام يوم القيامة»<sup>(١)</sup>. ويقول فى ضمن السبعة الذين يظلمهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله «ورجل قلبه معلق بحب المساجد»<sup>(٢)</sup> ويقول: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان»<sup>(٣)</sup> كما أن الإسلام جعل المشى إلى المساجد عبادة يعطى الله على كل خطوة حسنة، ويحط سيئة، ويضاعف بها الثواب، وفى الحديث «صلاة الرجل فى جماعة تضعف على صلته فى بيته وسوقه خمساً وعشرين درجة، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى الصلاة لا يخرجها إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحط عنه بها سيئة»<sup>(٤)</sup> وفى الحديث أيضاً «من غدا إلى المسجد أو راح أعد له فى الجنة نزلاً كلما غدا أو راح»<sup>(٥)</sup>.

وقد كانت المساجد منبع الثقافة والتوجيه ومجتمع الخير فى كل مناسبة، وحلقاتها كانت عامرة بطلاب العلم ومجالس العلماء، كما تقدم ذلك فى الحديث عن مكان التربية، وعلى الآباء أن يعودوا أبناءهم التردد عليها، مع ملاحظة تجنب الصبية غير المميزين دخولها، وإن كان يحسن شهودهم لها بالقرب منها حتى يالفوا رؤيتها وتنمو فى نفوسهم روح التقليد للمصلين فيها.

ومن التوجيه للخير أن يكون المشرفون على تثقيف الناس فى المساجد ذوى خبرة نفسية وعلمية، ليعرضوا مشكلات المجتمع فى لباقة على المصلين، وليختاروا من الأساليب ما يناسب الأوساط التى تقام فيها المساجد، على أن يضموا إلى خبرتهم العلمية والفنية سلوكاً ممتازاً يفرى بالقدوة به، فهو أكبر وسيلة للتقويم، والموجه الدينى فى وسط الحى ومع جمهوره الذى يعتاده يكون بمثابة الوالد، وبمنزلة الأخ والقائد والزعيم، وعليه أن يراعى كل ذلك وهو يودى مهمته، ويتصرف على ضوء هذا الشعور.

(١) رواه أبو داود والترمذى عن بريدة ورجال إسناده ثقات.

(٢) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة.

(٣) رواه الترمذى وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان وغيرهم عن أبى سعيد الخدرى.

(٤، ٥) رواهما البخارى ومسلم عن أبى هريرة.

ومن التوجيه أن يعاد للمسجد نفوذه الروحي وهيبته الدينية ورسالته الاجتماعية، فتعقد فيه مثلاً اجتماعات الخير وحفلات المناسبات الدينية ليعتاده الناس ويألفوه ولا يرمى من يتردد عليه بالرجعية والتأخر.

إن رسالة المسجد فى تقويم النشء عظيمة، لأنها ثقافة عملية تفيد العقل والخلق والروح، وتخدم المجتمع خدمة عظيمة، عن طريق القيم الروحية العالية، التى هى الركائز المتينة لكل تقدم ونجاح، ولو أن كبار القوم عمروها بالصلاة ووالوها بالتكريم لقلدهم غيرهم بسرعة، ولكان من وراء ذلك الخير الكثير.

#### (هـ) القوانين والتقاليد :

من الأشياء التى تؤثر على السلوك، وعن طريقها تمارس الأخلاق والعادات – القوانين التى تضعها الحكومات والتقاليد التى يتوارثها المجتمع، ولكل منها سلطانه على النفوس، القوانين لها سلطانها بقوة الحكومة، والتقاليد لها سلطاتها بقوة العرف، والخارج على الأولى يعاقب مادياً وأدبياً، والخارج على الثانية عقابه غالباً أدبى، ومهما يكن من شىء فإن سلوك الإنسان يدور فى هذا المحيط المحدد لا يتعداه، وإذا كانت القوانين صالحة والتقاليد مرضية أنتجت فى التربية خيراً كثيراً، وصالحها يكون بموافقتها للدين ورقابة تنفيذها وتطبيقها بدقة وإخلاص. والملاحظ أن بعض القوانين – إن لم تكن كلها – تخرج فى بعض موادها على الدين، كإباحة الخمر والربا والميسر والزنا فى بعض حالاته وكشف العورات والاختلاط... والقانون يكفل حرية تناول هذه الأشياء، والنشء الذى ينشأ فى ظل مثل هذه القوانين نشء مضيع، مغلوب على أمره ما دامت هناك حماية لحرية، تيسر له الخطيئة وتخفف المؤاخذة عليها، كما يلاحظ أن بعض الأعراف والتقاليد لا يقرها الدين، كالأخذ بالثأر وعادات المآثم والأفراح وحرمان المرأة من التعليم فى بعض الأوساط.

والتقاليد يمكن بالتوعية تخفيف حدتها، والخروج عليها إلى الدين يقلل من نقد الناقدين. والواجب هو الشجاعة وإيثار رضا الله على رضا الناس، ففى

الحديث الشريف « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مئونة الناس »<sup>(١)</sup> .  
غير أن القانون يصعب الخروج عليه بصفة فردية، لكن يمكن تعديله بطريق مشروع على يد من يملكون ذلك، وهم واضعوه باسم السلطة التشريعية . وإذا لم يتجاوب القانون والتقاليد مع الدين والأخلاق ضعف أثر التربية الخلقية والدينية، التى تقوم على الترغيب والترهيب الأدبى أكثر مما تقوم على قوة القانون وسلطة التقاليد .

والإصلاح لا بد فيه من التعاون، كل فيما يخصه، قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة: ٢] . وفى الحديث الشريف « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »<sup>(٢)</sup> .  
( و ) وسائل أخرى :

هناك وسائل غير ما تقدم، يعدُّ منها الباحثون : المعارض والأسواق وأماكن السياحة ومراكز الثقافة الشعبية والحمامات والمعسكرات والساحات وغيرها، وهذه كلها وسائل يفيد منها النشء ثقافة ومعرفة، ويمارس ألواناً من النشاط الرياضى، وتمتلىء نفسه حباً لوطنه وإخوانه، وإعجاباً بما يراه من آثار السابقين وجهودهم، وإنتاج عباقرة الزراعة والصناعة وغيرها، وتعشقه لهم ومحاولة التأثير بهم . . . . .

وهذا كله لا بأس به ما دام هناك إشراف دقيق يضع يد الناشئ على الحقائق الطيبة فى الحياة، ويلفت أنظارهم إلى المعانى الكثيرة الكريمة، وما دام النشاط فيها مراعى فيه حدود الآداب واللياقة، خصوصاً فى الحمامات والساحات، وما دام ذلك لا يلهى عن واجب دينى أو وطنى، وقد لفت الله أنظارنا إلى التفكير فى خلقه وتقليب النظر فى ملكوته وإلى العبرة والموعظة من سير الأولين . وآيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ فى ذلك كثيرة مشهورة . وكل نشاط يؤدى إلى الخير فهو خير، والإسلام يشجع ويجزل له الثواب .

( ١ ) رواه الترمذى وغيره عن عائشة . ( ٢ ) رواه البخارى ومسلم عن أبى موسى .

## الفصل العاشر

### فى تزويج الولد

الزواج مسئولية كبرى يحس الناشئ فيها برجولته، ويدرك أنه مسئول عن غيره بعد أن كان غيره مسئولا عنه، ولهذا ينبغي ألا يقدم عليه أحد إلا بعد أن يستوى عوده ويشهد عموده ويتمكن من تحمل تبعاته .

والزواج على ما هو معروف من حكمته يقصد منه النسل والتعاون فى الحياة وإعفاف النفس، وإذا أحس القائم على تربية النشء أن الزواج مصلحة له دينا ودنيا فلا مانع من تزويجه، لكنه - وهو ما يزال تحت رعايته قبل استقلاله - هل يجب عليه أن يتحمل نفقات الزواج وتبعاته من صداق وغيره؟ هذا راجع إلى حكم الزواج نفسه لمن هو فى هذه السن المبكرة هل هو واجب إذا تعين سبيلا إلى العفة وعصمته من الخطأ فيلزم ولى الأمر بنفقاته؟ أو هو مندوب يمكن الاستغناء عنه لكن هناك مصلحة ترغب فيه، فيندب للولى أن يقوم بهذه النفقات؟ لقد ورد فى الحديث الشريف «الغلام يعق عنه يوم السابع ويسمى ويماط عنه الأذى، فإذا بلغ ست سنين أدب، فإذا بلغ سبع سنين عزل فراشه، فإذا بلغ ثلاث عشرة سنة ضرب على الصلاة، فإذا بلغ ست عشرة زوجه أبوه، ثم أخذ بيده وقال: قد أدبتك وعلمتك وأنكحتك، أعوذ بالله من فتنك فى الدنيا وعذابك فى الآخرة» زواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الضحايا والعقيقة، إلا أنه قال «وأدبوه لسبع، وزوجه لسبع عشرة» ولم يذكر الصوم. وفى إسناده من لم يسم<sup>(١)</sup>.

وروى أبو نعيم والديلمى عن أبى هريرة حديث «حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه وأن يزوجه إذا أدرك ويعلمه الكتاب» أخرجه فى الجامع الصغير للسيوطى، وهو ضعيف، وفى الجامع الكبير له «اضربوه على الصلاة لسبع،

(١) الإحياء ج ٢ ص ١٩٣ .

واعزلوا فراشه لتسع، وزوجه لسبع عشرة إن كان، فإذا فعل ذلك فليجلسه بين يديه ثم ليقل: لا جعلك الله على فتنة في الدنيا ولا في الآخرة» رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة عن أنس، كما تقدم ما أورده ابن القيم في «تحفة الودود» من أثم الوالد إذا لم يزوج ولده فانحرف.

وأرى أن معونة الولد على زواجه من باب البر به، كما أن قيام الأب بتأديب بناته وتزويجهن من أعظم القربات كما تقدم، وإن كنت أنصح الولد بأن يبدأ حياته الزوجية وهو حر مستقل عن كفالة والديه له، ليستطيع أن يقوم وحده بأعباء هذه الحياة الجديدة، حتى يكون الزواج له سكناً بالمعنى الصحيح، وحتى تثمر الأسرة الجديدة ثمرتها الطيبة.

وإذا تطوع الوالد بتزويج ولده ليفرح به، كما هو عرف بعض القرويين، كان عليه أن يكون وفيّاً له، لا يتركه بعد الزواج يحمل العبء وحده وحسبُه أنه فرح بتزويجه ساعات أو أياماً، ولا يهمله بعد ذلك أن يشقى ولده أو يسعد، والمآسى والصور المحزنة خير شاهد على ما أقول؛ والإسلام ينهى عن الضرر والضرار، ويأمر بالتدبير عند الإقدام على عمل مهم مثل هذا العمل، ويحذر من التورط في المهالك، وقد سبق قول الله سبحانه في ذلك ﴿وَلَيْسَتَعَفِيفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يَغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٢٣] وقول النبي ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

(١) رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود.